ألفة الإدلبي

حكاية جدّي

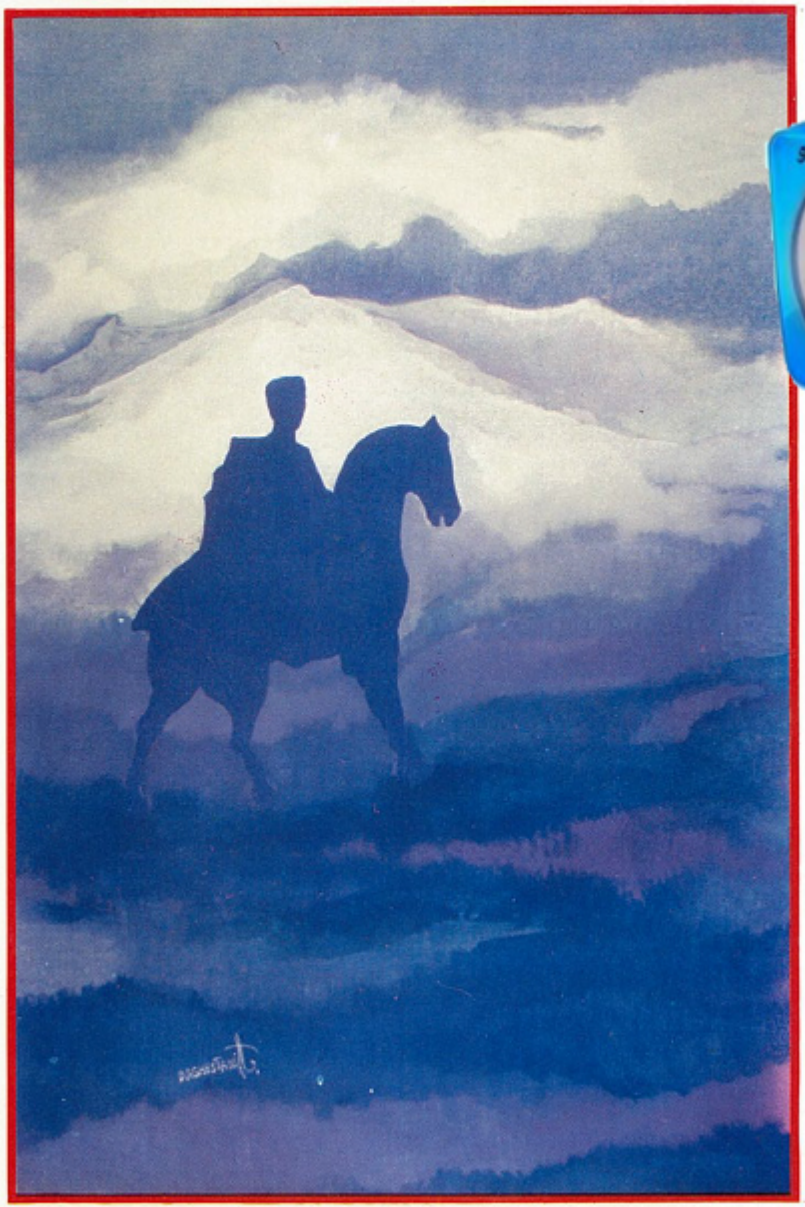

مدونة أبو عبدو

رواية

٨٥/٦٠

دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

حكاية جدّي

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٩١

ألفة الإدلبي

حكاية جدّي

رواية

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الإهداء:

إلى فتيان وفتيات بلادي

المقـــدمـة

يقول الشاعر الداغستاني الكبير رسول حمزاتوف في مقدمة كتابه النفيس (داغستان بلدي):

يا كتابي قبل أن أبدأ بك أحبُّ أن أقصَّ قصتي معك:

كيف نضجت في نفسي؟

كيف وجدت لك عنواناً؟

لماذا أكتبك؟

ما هي أهداف حياتي؟

ولما كان السير على غرار الكبـار أمـراً محمـوداً، ولا أقصد الكبار سناً، إنما أقصد الكبار فناً، وموهبـة، وأصالة أحببت أنا أيضاً قبل أن أبدأ روايتي هذه أن أقصَّ عليكم قصتي معها. أولاً كيف نضجت في نفسي.

أنا أنتمي من طرف الأم إلى أسرة داغستانية هاجرت من داغستان إلى دمشق منذ عام ١٩٢٥ وما زالت فيها إلى الآن تحمل اسم (بيت الداغستاني) وكان لهجرة هذه الأسرة قصة غريبة فيها من المتعة والطرافة بقدر ما فيها من الآلام والمآسي.

كنت أسمع هذه القصة تُروى في أسرتنا منذ تفتح وعيي على هذه الدنيا، كان يرويها الآباء والأمهات للأولاد والأحفاد جيلاً بعد جيل، حتى وصلت إلي وأنا من الجيل الخامس في هذه الأسرة، وكم سمعتها من جدتي لأمي، ومن أمي، وخالاتي، وأخوالي، كان كل منهم يروي نتفاً منها على طريقته الخاصة، وكم كان يحلو لي حين كنت طفلة صغيرة أن أسمعها من أمي أو جدتي قبل أن أنام.

وهكذا نضجت القصة في نفسي.

أذكر أنني سألت أمي مرة، وكانت تصف لي جبال داغستان، وعلوها الشاهق كما سمعت هذا الوصف من جدها:

ـــ هل جبال داغستان يا أمي في مثل علوّ جبل قاسيون؟ وكنا نسكن في سفحه، وكنت أحسبه عملاقاً بين الجبال.

وتضحك أمي، وتقول لي:

ـــ لو وضع فوق جبل قاسيون جبل آخر في مثل حجمه لما وصل إلى مثل علو جبل داغستان.

وتتملكني الدهشة، ولا يستطيع خيالي الطفل أن يتخيل هذا العلو الشاهق. منذ ذلك الحين راح ينمو في ذهني حلم جميل هو زيارة بلاد الداغستان لأرى جبالها الشاهقة ووديانها السحيقة.

ومع مضيِّ الأيام تماوت هذا الحلم الجميل في حنايا النفس حين زحمته أحلام أخرى قد تكون أقوى منه إلى أن وقع في يدي كتاب (داغستان بلدي) للكاتب الشهير رسول حمزاتوف فرحت أقرأه بلهفة ونهم، فإذا الحلم الجميل القديم يبعث في نفسي حيّاً كما يبعث طير الفينيق في أسطورة من أساطير بلادي.

وأجدني أعرف كثيراً من عادات وتقاليد وطبيعة هذه البلاد كما كنت أسمعها تُروى في أسرتي، وقد سجلها المؤلف الداغستاني في كتابه بكثير من الروعة والحب. والغريب في أمري، وأنا كاتبة قصصية وروائية أيضاً.. ألّا يخطر ببالي أن أكتب هذه القصة ذات الأهداف النبيلة، إلى أن قرأت كتاب (داغستان بلدي) فوجدت لزاماً عليَّ

أن أكتبها. واخترت لها عنواناً: (حكاية جدي) لأنني وجدتها أقرب إلى الحكايات والأساطير منها إلى القصص الحديث.

أما لماذا أكتبها؟

أكتبها لأنني وجدت فيها نزعة إنسانية، أسجلها مأثرة لجدي (محمد جلبي) الذي تخلى عن أنانيته وهو شيخ كبير، وضحى تضحية مثلى في سبيل زوجه الشابة.

كما أسجل فيها مأثرة أخرى لجدي (صالح) الذي قُدِّر عليه أن يهجر وطنه وأمه وهو طفل صغير لم يتم العاشرة من عمره، فلم ينسهما أبداً.

كان كلما ذكرت أمامه داغستان تمثلت في ذهنه صورة أمه. وكلما ذكرت أمّه تمثلت له بلاده داغستان، وتختلط الصورتان وتمتزجان فإذا هما صورة واحدة.

أليس الوطن هو الأم، والأم هي الوطن؟ ويظل يتحدث عنهما إلى أولاده وأحفاده، وجيرانه وزواره طول حياته التي امتدت أكثر من ثمانين سنة.

ولما كان من أهداف حياتي أن أكتب أدباً بنّاءً... أحببت أن أكتب هذه الرواية وأهديها إلى فتيات وفتيان

بلادي، لأنني وجدت فيها تضحية مثلى، وحباً للوطن والأم لا تنطفئ جذوته مهما امتدَّ العمر.

وأرجو أن أكون قد حققت بعض ماأصبو إليه.

١

في أول يوم من شهر رمضان جمعتنا أمي حول المنقل وقالت لنا :

ــ سأروي لكم في هذا الشهر الفضيل، وبين صلاتي المغرب والعشاء، حين يكون أبوكم في صلاة التراويح قصة هجرة جدي من بلاد الداغستان إلى دمشق.

وهي حكاية ممتعة وطريفة، وأنا على ثقة تامة أنكم ستسرون بها كثيراً.

سأوري لكم كل يوم قسطاً منها كما كان يفعل جدي حين يرويها لنا. وقد أوصانا أن نرويها لأولادنا وأحفادنا كي تظل حية في الصدور، كان يربأ بها أن تنسى. وها أنا ذي أنفذ الوصية.

يبدو أن جدي كان يحلو له أن يبدأ حكايته من النقطة الأكثر تأثيراً في نفسه. وكان قاصاً بالسليقة أحياناً، يسترسل في حديثه، وأحياناً يختصر كأنه كان يتحرى عن النقطة الأكثر تشويقاً ليقف عندها ويجعلنا أكثر تعلقاً بالحكاية، ننتظر ميعادها بصبر فارغ. وسأبدأ من حيث كان يبدأ، وسأقف

حيث كان يقف، لأنني ما زلت أذكر ذلك بدقة تامة لكثرة ما سمعت هذه الحكاية.

• قال جدي:

ـــ مهما امتدَّ بي العمر لن أنسى عصر ذلك اليوم الذي عدت فيه من المدرسة إلى البيت فوجدت أبي يتمشى في صحن الدار على غير عادته، نظر إلى هاشاً كأنه كان ينتظرني وقال لي:

ـــ هيّا اتبعني يا صالح إلى غرفتي، لك عندي اليوم مفاجأة سارة. ركضت وراءه وقلت له:

ـــ هل ستأتي أمي من داغستان؟ نظر إليَّ عابساً وقال منددأ بي:

ـــ لماذا أنت ملحاح إلى هذا الحد؟ كم مرة قلت لك: لن تستطيع أمك المجيء إلى دمشق حتى يشفى أبوها من مرضه، لأنه سيأتي معها إلى دمشق. قلت متنهداً:

ـــ لقد مضى على هجرتنا من داغستان إلى دمشق سنتان، ولم يشف جدي من مرضه بعد؟ قال:

ـــ كن يا بني صبوراً، إن الأمور مرهونة بأوقاتها، ولا يتم أمر إلّا بإذنه تعالى. فسكت على مضض.

هذا هو جوابه لا يتغير كلما سألته عن مجيء أمي.. نظر إليَّ نظرة حنون وقال:

ـــ مالك، لم تسألني عن المفاجأة السارة التي أعددتها لك؟ قلت له بصوت خفيض:

ـــ ليس لدي مفاجأة سارة سوى مجيء أمي. قال:

ـــ لاتكن متشائماً. هناك مفاجآت سارة جداً قد لاتخطر على بال.. لقد عزمت على الحج هذا العام، وسآخذك معي لتحج إلى بيت الله الحرام، وتزور قبر النبي عليه الصلاة والسلام. أليست هذه مفاجأة سارة؟. وسنسافر بعد يومين إن شاء الله. عقدت الدهشة لساني فنظرت إليه ببلاهة دون أن أنطق بكلمة.

قال: ظننت أنك ستفرح كثيراً لأنني أعرفك مؤمناً صادقاً. وقد ذهبت اليوم إلى السوق فاشتريت ملابس جديدة لك ولي، ومناشف للإحرام واتفقت مع «عكّام» ليهيئ لنا «محارة» لركوبنا ويتولى شؤوننا في أثناء السفر. قلت:

ـــ لاتؤاخذني ياأبي إذا لم أشكرك فوراً، لأن المفاجأة قد عقدت لساني، ولكن أحب أن أسألك ما هو العكّام؟ وما هي المحارة؟ إنها أسماء غريبة عليَّ لاأعرف معناها. قال:

ـــ العكّام هو الرجل الذي يقود جمل الحاج ويتولى شؤونه في أثناء السفر، والمحارة كوخ صغير من خشب مكسو بقماش دمشقي زاهٍ يُثبّت على ظهر الجمل وهو يتسع لشخصين مع حوائجهما.

ثم قال: لاتتحدث بأمر سفرنا أمام أحد من أهل البيت، أنا

سأخبرهم به بعد العشاء. بعد أن انتهينا من عشاءنا قال أبي لأخويَّ بلهجته الهادئة القاطعة :

ـــ لقد عزمت على الحج هذا العام إن شاء الله. قال أخي الكبير :

ـــ أتسمح لي يا أبي أن أرافقك إلى الحج؟ لقد بلغت هذا العمر ولم أحج بعد. قال أبي : هذه المرة سآخذ معي صالحاً، إذا شئت أن تحج ففي العام القادم إن شاء الله مع أخيك.

سكت أخواي لأنهما ما اعتادا أن يراجعا أباهما في شيء يريده أو يرغب فيه.

قالت زوجة أخي الكبير موجهة الكلام إليَّ :

ـــ منذ الآن يا أخي الصغير سأناديك يا حاج صالح. وضحكنا جميعاً.

أرقت ليلتها طويلاً وأنا أتخيل نفسي مع أبي جالسين في كوخ صغير مثبَّتٍ على ظهر جمل يهتز بنا يميناً وشمالاً، ولا أدري كم ستمتد رحلتنا هذه... ويداخلني شيء من الخوف، لأنني خشيت على أبي الذي تجاوز الثمانين من عمره ألَّا يتحمل هذه الرحلة الشاقة. لكن لا مفر من ذلك، سأتّكل على الله، وأرضى بما قدَّره عليّ.

في اليوم الثاني ذهبت إلى المدرسة، وتحدثت إلى رفاقي عن ذهابي إلى الحج، وشعرت بالتيه وأنا أرى بعضهم يغبطني، والآخر يحسدني على هذه الرحلة التي قلّما تتاح لمن كان في مثل عمري من الصبيان، لأنها تكلف كثيراً من المال وهي لم تفرض عليهم بعد.

حان ميعاد ذهابنا، وكان ذلك في أواسط شهر شوال، فحزمنا أمتعتنا ووضعناها في بقجة كبيرة، ثم وضعنا الزوادة التي هُيِّئت لنا في سلّة.

استيقظنا يومئذٍ باكراً، وكان أخواي قد استأجرا لنا عربة جاءت في الميعاد المحدد، وجاء أخواي معنا لوداعنا. خرجنا من دمشق بعد صلاة الصبح. وصلنا إلى مكان يسمى «العسالي» ومنه انطلق الحجيج، هناك تعرفنا على عكّامنا فإذا هو رجل عملاق قوي البنيان يوحي بالثقة والاطمئنان، وهو الذي سيقود جملنا ويتولى شؤوننا في أثناء الرحلة.

كان المكان غاصاً بالبشر من مختلف الأجناس والسحن والألوان والأزياء. انتظرنا فترة حتى وصل «السنجق» وهو علم كبير من الحرير الأخضر المطرز بالقصب مثبَّت على جمل يسير في مقدمة الركب، أما المحمل فهو كالقبة الصغيرة مكسوة بالقطيفة السوداء المطرزة بالقصب أيضاً، ومثبَّتة على جمل ضخم وفي داخلها كسوة الكعبة التي كانت ترسل من بلاد الشام إلى الكعبة المشرفة. بدأ الركب ينتظم شيئاً فشيئاً، ثم عزفت الموسيقى وأطلقت المدافع إيذاناً بالسير، فسار الركب يتقدمه «السنجق» علم الحج، ثم المحمل، ثم التختروان، وهو كغرفة صغيرة جداً مكسوة بقماش دمشقي زاهٍ ومثبَّتة على بغلين ضخمين يجلس فيها أمير الحج، ثم سارت الخيل، والجمال والمحارات، ثم المشاة. وكان العكّام قد أجلسنا أنا وأبي في المحارة، أبي في جانب، وأنا في الجانب الآخر. وإلى جانبي وضع متاعنا وزوادتنا كي يوازن بين الثقلين. لم أكن أحسب أبداً أن هذه المحارة الصغيرة ستتسع لنا ولمتاعنا وتكون مريحة إلى هذا الحد. وكان إلى جانبي طاقة صغيرة فتحت في جدار المحارة عليها ستارة لتحجب الشمس. كنت أرفع الستارة وأنظر من الطاقة إلى

هذا البحر المتلاطم من الخيول والجمال والمحارات والبشر المشاة. حقاً إنها لفرجة ممتعة. وكانت الطريق مقسمة إلى محطات يقف الركب كله عندها ليرتاح الحجاج وترتاح دوابهم، وينشط العكّامون والمهاترة وهم المسؤولون عن الخيول فينصبون الخيام ويعدونها على شكل مدينة صغيرة يضيئونها بالمشاعل، كما يضيئون الخيام بالشموع والفنارات، وقد يقيمون المقاهي ليجتمع فيها الحجاج، ويعدون فيها النراجيل والمشروبات. ثم يربطون الدواب بعيدة عن الخيام ويعدون الطعام. ويقول جدي:

كنت أدور بين الخيام وأتعرف إلى الحجاج، وأستمع إلى أحاديثهم ثم أعود إلى حيث يجلس أبي. فأحدثه بما سمعت ورأيت. ثم تضرب المدافع إيذاناً بقيام الركب وتجمع الخيام وينتظم الركب ويسير كما كان.

لم نشكُ أنا وأبي من تعب أو مرض كما شكا أكثر الحجاج، فصبيٌّ في مثل عمري لا يشعر بالتعب. أما أبي فقد كان رغم تجاوزه الثمانين عاماً من عمره موفور الصحة، متين البنيان ككل مواطنينا الجبليين القفقاسيين الذين اشتهروا بقوة أجسادهم وطول أعمارهم.

استغرقت مسيرتنا هذه شهراً كاملاً حتى وصلنا المدينة المنورة، قادنا العكّام فوراً إلى غرفة جيدة اعتاد أن يستأجرها لزبائنه، وضعنا فيها حوائجنا، ثم أخذنا إلى الحمام. لا أذكر أنني سعدت بحمام مثله بعد عناء السفر المرهق.

• قال لي أبي:

ـــ البس يا بني خير ما عندك، وتطيّب، فسنذهب بعد قليل لزيارة نبينا الكريم. فعلت ما أمرني به ثم ذهبنا إلى مسجد الرسول. تملكتني الدهشة

وأنا أنظر إلى التحف الثمينة التي زُين بها هذا المقام المقدس، صلينا ركعتين تحية للمسجد، ثم اتجهنا نحو قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. قال لي أبي:

ـــ تأدب يا بني، واخفض بصرك خشوعاً وخضوعاً، نحن الآن في حضرة نبينا الكريم محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.. اعترتني رهبة شديدة وأنا أتقدم من قبر الرسول ثم اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أقرأ الفاتحة وأهبها لروحه السامية. ثم أُرتج علي فلم أعد أستطيع أن أكرر الأدعية التي كان أبي يتلوها أمام قبر الرسول. تحولنا إلى قبر الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقرأنا له الفاتحة، ثم قرأناها أيضاً أمام قبر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ثم أخذنا نقرأ القرآن حتى إذا أُذّن للظهر صلينا ثم عدنا إلى غرفتنا لنستريح، فإذا العكّام قد هيأ لنا شيئاً نأكله. استرحنا قليلاً، ثم ارتدينا ألبستنا وخرجنا نتجول في هذه المدينة الأنيسة ذات البساتين الخضراء والهواء العليل. مكثنا في المدينة المنورة ثلاثة أيام كانت من أحلى الأيام وأسعدها. كنا نقضي جلّ أوقاتنا في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام نصلي ونقرأ القرآن ثم نعود إلى غرفتنا بعد صلاة العشاء فننام فيها نوماً هادئاً مريحاً لا نصحو منه إلا عند صلاة الفجر.

في اليوم الرابع انتظم ركبنا وأخذ طريقه نحو مكة المكرمة.

كانت الطريق شديدة الوحشة، كلها جبال صخرية رمادية كالحة تمتدُّ على طرفي الطريق الوعرة. كان أبي يقول لي:

ـــ تصور يا بني كم تحمل نبيّنا الكريم من مشقة في سبيل رسالته العظيمة حين هاجر من مكة إلى المدينة، لقد قطع هذه الطريق مع صديقه

أبي بكر على راحلة، وكانا وحدهما، ويعلم الله كم تعرضا لمخاطر جسيمة تحملاها راضيين صابرين في سبيل إعلاء كلمة الله جلَّ شأنه.

توقف ركبنا في مدينة رابغ، وإذا المنادون يعلنون أننا قد دخلنا أرض مكة المكرَّمة فعلى الحجاج أن يتوضأوا، ويرتدوا ألبسة الإحرام. فأخرج أبي المناشف البيضاء من صرتها ناولني اثنتين منها وعلمني كيف ألفُّ إحداها على خصري ثم أضع الثانية على كتفي الأيسر، وأحبس طرفيها تحت إبطي الأيمن، وأترك كتفي الأيمن عارية. مكثنا في استراحتنا هذه أكثر من عادتنا في الاستراحات الأخرى، أكلنا وصلينا ثم انتظم ركبنا وأخذ طريقه نحو مكة المكرمة فبلغناها بعد مسيرة أربعة أيام قادنا العكَّام إلى غرفة اعتاد أن يستأجرها لزبائنه أيضاً، وكانت قريبة من الحرم، وجدنا صاحب الغرفة أمام الباب، استقبلنا بحفاوة ولطف، ثم فتح لنا باب الغرفة، فإذا هي واسعة، مضيئة ونظيفة، لها عتبة كبيرة فيها بالوعة، وجردل كبير مملوء بالماء، نستطيع أن نتوضأ في هذه العتبة متى شئنا.

رتبنا حوائجنا في الغرفة وتوضأنا، ثم أخذنا العكَّام فدلّنا على السوق لنشتري منها حوائجنا ثم أخذنا إلى الحرم.

يا لهذا المكان ما أروعه!... وقفت لحظة خاشعاً مبهوتاً أتأمل سعته والكعبة قائمة في منتصفه، مربع ضخم مرتفع في الفضاء مكسو بالقطيفة السوداء المطرزة بالقصب، والناس يطوفون حولها. قال لي أبي:

ـــ تعال يا بني لنصلي ركعتين تحية لبيت الله العتيق، ثم بعد الصلاة نطوف ونسعى بين الصفا والمروة كما طاف وسعى نبينا عليه الصلاة والسلام.

بعد الصلاة طفنا حول الكعبة سبعة أشواط . كان الشوط يبتدئ من أمام الحجر الأسود .. كنا نحييه ، ونبدأ طوافنا حول الكعبة حتى إذا انتهينا إليه عدنا إلى تحيته ، وبدأنا الشوط الثاني ، وهكذا دواليك سبعة أشواط كاملة . في نهاية الشوط الأخير استطعنا أن نشق لنا طريقاً في الزحام فنصل إلى الحجر الأسود فنقبله كما قبّله نبينا عليه الصلاة والسلام . ثم اتجهنا نحو المسعى الذي لا يبعد إلّا قليلاً عن الحرم . قال لي أبي :

ــ اسع أنت مع الساعين وادع كما يدعون ، ودعني وحدي أسعى متمهلاً كي لا أتعب .

• قلت له :

ــ لن أفترق عنك أبداً . قال لي بحزم :

ــ افعل ما أطلبه منك دون جدال ، فهذا يريحني ويريحك ، فإذا انتهيت من سعيك انتظرني هنا ، ويشير بيده إلى مكان لا يبعد عن المسعى إلّا قليلاً . فعلت ما أمرني به ، ولما انتهيت من أشواطي السبعة كان أبي ما يزال يهرول في شوطه الرابع ورحت أتسلى بمرأى الساعين من رجال ، ونساء ، وشيوخ ، وشباب ، يصعدون مهرولين حتى نهاية هذه الطريق ثم يقفون متجهين نحو القبلة يرددون دعاءً خاصاً ، ثم ينحدرون من جهة اليسار مهرولين أيضاً حتى نهاية الطريق ، سبع مرات صعوداً وهبوطاً . إنها والله لفرجة لا تنسى أبداً . فلمّا انتهى أبي من سعيه عدنا إلى الحرم بعد أن ذهبنا إلى بئر زمزم وشربنا منها حتى ارتوينا . جلسنا في أحد الأروقة نقرأ القرآن حتى أذّن المؤذن لصلاة العشاء فصلّينا ثم عدنا إلى غرفتنا . مكثنا في مكة ثلاثة أيام قبل أن نخرج إلى عرفات . كنا كل يوم نذهب إلى الحرم منذ صلاة الصبح نطوف ونسعى ونقرأ القرآن

فإذا حان موعد طعامنا خرجنا إلى الأسواق فاشترينا ما تشتهي أنفسنا، ثم نختار مكاناً نأكل فيه، ثم نعود إلى الحرم لنجلس في أحد الأروقة، كنت أضع في حجري مصحفاً أرتل القرآن بصوت خفيض، وأبي يقـوِّم لي قراءتي ويفسر لي بعض الآيات.

كان يقول لي:

ــ لقد أصبحت يا بني تلفظ اللغة العربية خيراً مني لأنك تعلمتها صغيراً، وقد أفادك كثيراً ذهابك إلى «الكتّـاب» في دمشق.

كان يقول لي ذلك لأن أبي كان يشكو من لكنة عندما يتكلم اللغة العربية لم يستطع التغلب عليها رغم أنه كان عالماً مرموقاً، درس في الأزهر، وكان في داغستان يدرِّس اللغة العربية، والقرآن الكريم، والفقه، ويشغل وظيفة مفتي لبلدتين متجاورتين هما «شكي» و «شروان».

ذات صباح قبل ابتداء موسم الحج بيوم واحد وبينما كنّا قاعدين في الحرم إذ مـرَّ من أمامنا بعض الحجاج الداغستانيين، فلاحظت أن أبي كان يواري وجهه منهم كأنه لا يريد أن يروه. استغربت هذا الأمر ولم أجد له تفسيراً.

فلمّا ابتعدوا عنا قليلاً قال لي وأشار بيده:

ــ هؤلاء الحجاج من بلدنا يا صالح. انظر هذا الرجل الطويل ذا اللحية السوداء والجبَّة الرمادية اذهب إليه يا بني وقل له:

ــ أنا صالح ابن الشيخ محمد جلبي. ثم سله عن أمك، واطلب منه أن يطمئنها عنك، وإذا سألك هو أو من معه عني إيَّاك أن ترشدهم إليَّ.

قل لهم :

ـــ لا أدري أين هو الآن ، ولا أعلم متى سيعود .

نظرت إلى أبي مستغرباً وقلت له :

ـــ من هو هذا الرجل الذي يعرف أمي ؟

هل هو من أقربائنا ؟؟؟

ولماذا تأبى أن تقابله ؟؟ بل أراك تتوارى منه ومن رفاقه الذين هم من بلدنا كما تقول ؟

لم يجبني أبي على سؤالي . بل قال بلهجة قاطعة :

ـــ أقول لك اذهب حالاً قبل أن يضيع منا الرجل في زحمة الحجاج .

راح يساورني من تصرفات أبي شيء من الشك لا أدرك كنهه ...

لم يكن من عادتي أن أخالف أبي في شيء ، ولا أدري من أين أتتني تلك الشجاعة فقلت له بإصرار :

ـــ لا لن أذهب قبل أن أعرف من هو هذا الرجل .

قال لي بشيء من التململ وبلهجة قاطعة وصوت عالٍ :

ـــ لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ... متى كنت عنيداً إلى هذا الحد ؟؟ عندما تعود سأشرح لك كل شيء ، أسرع الآن .. أوشك الرجل أن يخرج من الحرم ، وسيضيع منا في زحمة الحجاج . ستُسر أمك كثيراً عندما يحدثها عنك وعندما تعرف أنني اصطحبتك معي إلى الحج .

وكأن قوله «ستسر أمك» دفعني لأن أركض خلف الرجل فاستطعت أن أدركه قبل أن يخرج من الحرم. شددته من جبته، التفت إليَّ، قلت له بلغتي الداغستانية التي مازلت أجيدها تماماً لأنها اللغة السائدة في بيتنا:

ـــ أنا صالح ابن الشيخ محمد جلبي.

فإذا الرجل يحملق بي دهشاً، ثم يفتح ذراعيه ويضمني إليه، ويقبلني بحنان. ثم ينادي رفاقه ويقول لهم:

ـــ انظروا هذا الفتى الجميل إنه صالح ابن المفتي الشيخ محمد جلبي.

ثم يقول لي:

ـــ إن أمك يا بني لم تنسك أبداً، دائماً تتحدث عنك، وتتسقط أخبارك وكثيراً ماتراك في نومها. وستسر جداً عندما أخبرها أنني رأيتك في مكة المكرمة تؤدي فريضة الحج.

قلت له وأنا أغالب دموعي:

ـــ هل شفي جدي من مرضه؟ ومتى سيأتي مع أمي إلى دمشق؟ إنني بغاية الشوق إليهما، بدت لي بعيني الرجل حيرة كأنه يستغرب قولي هذا. وإذا رفاقه يتحلقون حولي يسألونني عن أخبار أبي وصحته وأين هو الآن؟

ارتبكت.. وأجبت متلكئاً وأنا أشعر بالخجل من كذبتي المفضوحة هذه:

ـــ صحته جيدة الحمد لله، وهو هنا يؤدي فريضة الحج، لكنني

لا أعرف أين ذهب، ولا أدري متى سيعود، وخفضت بصري إلى الأرض لأتحاشى نظراتهم. تبادلوا النظرات المتسائلة، ثم راحوا يتهامسون فيما بينهم كأنهم أدركوا أن أبي لا يرغب في رؤيتهم، ثم ودعوني وانصرفوا وكأنهم غير راضين، عدت إلى أبي، وحدثته بما قال الرجل ورفاقه، فلم ألاحظ على وجهه أي انفعال.

صبرت قليلاً ثم قلت له:

ـــ قل لي يا أبي من هو هذا الرجل الذي يعرف أمي تمام المعرفة ويستقبلني بحرارة وكأنه من أقربائنا الأقربين؟

نظر أبي إليَّ بإشفاق ثم قال:

ـــ قم الآن وصلِّ لربك ركعتين، ثم سله أن يُلهمك الصبر والقوة، لأنني سأفاجئك يا بني بما لا يسرك أبداً!!

وينتصب جدي فجأة واقفاً ويقول: انتهت اليوم سهرتنا تصبحون على خير. حاولنا أن نتشبث به ليقول لنا ماذا قال له أبوه، فلم يرد علينا..

* * *

٢

• قالت أمي :

ـــ ابتدأ جدي ليلتئذ حديثه قائلاً :

ـــ أظن أننا توقفنا البارحة عندما قال لي أبي : سأفاجئك يا بني بما لا يسرك . قلنا جميعاً بلهفة نعم هنا توقفنا ، ويستأنف جدي حديثه قائلاً :

ـــ حينئذ شعرت أن قلبي يسقط في هاوية .

قلت بصوت خفيض مضطرب :

ـــ هل ماتت أمي ؟!..

ابتسم أبي بمرارة وسخرية ، ثم تحول وقال لي :

ـــ أمجنون أنت ؟ أبعث بك إلى الرجل لتطمئن على أمك وتطمئن أمك عليك فتقول لي بغباء :

ـــ هل ماتت أمي ؟!.... متى كان الأموات يطمئنون على الأحياء؟

قم صلِّ لربك كما قلت لك، ثم تعال إليَّ لأحدثك بما شئت.

ووجدتني أمتثل لأمره دون أية معارضة، فأقوم وأقف غير بعيد عنه ثم أنوي الصلاة وأصلي ركعتين لله تعالى، فإذا انتهيت منهما رفعت يدي نحو السماء أسأل الله تعالى أن يقوّيني ويفرغ عليَّ الصبر، فمما لا شك فيه أنني سأفاجأ بأمر قاسٍ وسيؤلمني سماعه.

قعدت قبالة أبي، ووجهت ناظريَّ إليه، وفي عيني تزدحم شتى الأسئلة، كان يفكر ويعبث بلحيته وكأنه في هم عظيم.

أخيراً رفع رأسه ونظر إلي نظرة مليئة بالعطف والحنان، وقال بصوت مضطرب:

ـــ أتدري من يكون هذا الرجل الذي تسألني عنه يا بني؟

• قلت:

ـــ لو كنت أدري لما سألتك يا أبي.

• قال:

ـــ إنه... إنه... زوج أمك يا صالح!..

شهقت من أعماقي، وكأن مطرقة قد هوت على رأسي. كنت مولعاً بأمي إلى حد الوَلَهْ، وكنت في غاية الشوق إليها، أنتظر مجيئها إلى دمشق بفارغ الصبر.

قلت لأبي بلهجة لم أعتد أن أكلمه بمثلها:

ـــ ماذا جرى لعقلك يا أبي، وما معنى هذا الكلام الذي تقوله؟؟ ألستَ أنت زوج أمي؟

• قال بصوت فيه رقة، وفيه حزم:

ـــ لا يابني لم أعد زوج أمك لأنني طلقتها منذ جئت إلى دمشق..

• قلت بصوت مرتجف وأنا أبلع دموعي:

ـــ طلقتها؟؟.. وصمتُّ لحظة أستوعب الكلمة ثم قلت:

لـمَ، لـمَ طلقتها؟ قل لي لمَ فعلت ذلك، ولـمَ كتمت عني الخبر؟

أيجوز لك أن تدعني سنتين كاملتين أعلل نفسي بلقياها؟!.. كنت كلما سألتك عنها تقول لي:

ـــ إن أباها مريض لا يقوى على السفر، وعندما يشفى من مرضه سيصطحبها ويأتيان إلى دمشق معاً.

ما أغباني، كنت أصدقك، كيف، كيف صدقتك؟ الأمر واضح!...

ووضعت يدي على وجهي، ورحت أجهش بالبكاء بصوت عالٍ، غير مبالٍ بمن حولي من الناس.

سمعت أبي يقول:

ـــ لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، حسبي الله ونعم الوكيل..

كتمت عنك الأمر يا ولدي لأنك كنت صغيراً خشيت أن أجرح شعورك جرحاً لا يلتئم.

أما الآن وقد كبرت ووعيت، أحببت أن أصارحك بالأمر.

لكن يبدو أنك لم تنضج بعد ولو أنك بلغت الثانية عشرة من عمرك، لا تزال على ما أرى هشاً ضعيفاً رغم أنك تبدو قوياً وأكبر من عمرك.

ألا تعلم يا صالح أنه عار كبير على الفتى الداغستاني أن يبكي مثل النساء!.. لو كنت الآن في داغستان لكان لك خنجر مصقول معلق على خصرك، ومهر أصيل تمتطي ظهره كل يوم وتتدربان معاً على صعود المسالك الوعرة في جبالنا الشامخة، أو هبوط الوديان السحيقة بمهارة لا تجارى حتى تصبح فارساً مغواراً كأندادك من الفرسان الداغستانيين المشهورين في العالم كله. شجاعاً، مقداماً، قادراً على التحكم بعواطفك مهما تنكرت لك الأيام.

لا، ثم لا، لست ابني ما دمت خائر العزيمة، ضعيفاً تبكي مثل النساء!... اسمع يا صالح ولو أننا هاجرنا من بلادنا لا يجوز لنا أبداً أن نتخلى عن لغتنا وعاداتنا وتقاليدنا التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا.. بل يجب علينا أن نحرص عليها أشدَّ الحرص، ونعلمها لابنائنا وأحفادنا من بعدنا، حتى إذا عدنا ذات يوم إلى وطننا ــ ولا بد لنا أن نعود إن شاء الله ــ لا تنكرنا أرضنا، ولا ينكرنا أهلنا كأننا أغراب عنهم.

أريدك يا بني أن تكون أنوفاً، أبيّاً، شامخ النفس شموخ جبال داغستان،

صامد القلب صمود صخورها الصماء،
نقي السريرة نقاء ثلوجها البيضاء،
كريماً معطاء كشلالاتها الدفّاقة.

يا بني إن من لا هوية خاصة له لا قيمة له، سيظل نكرة مهما حالفه النجاح، والوضيع هو الذي ينتحل هوية ليست له، سيظل طفيلياً على المجتمع الذي انتمى إليه. وقلّما يتقبله هذا المجتمع إلّا إذا كان فلتة من فلتات هذا الدهر، يباهى به حقاً. وما أقل فلتات الدهور!...

سحرني كلام أبي وبعث بي قوة لا عهد لي بها، شعرت كأني كبرت عشرات السنين وأنا في جلستي تلك أمام أبي.

لبثت صامتاً برهة، كنت أرى خلالها، آفاقاً جديدة قد تفتحت أمامي جعلتني ذاهلاً شبه ضائع.

كان أبي يشملني بنظرات تقطر حناناً راحت تخفض شيئاً من توتري وتعيد إلي شيئاً يسيراً من الطمأنينة.

أخرجت منديلي من جيبي، وأخذت أمسح ما تبقى على وجهي من أثر الدموع حتى سُري عني قليلاً.

نظرت إلى أبي نظرة عاتبة ثم قلت له:

ــ ولكنك لم تقل لي بعد لـمَ طلقت أمي؟؟!...

قل لي بربك أيَّ ذنب جنته حتى استحقت منك هذا الطلاق؟؟...

• قال:

ـــ حاشا لله يا بني أن تكون أمك مذنبة ، حاشا لله إنها الزوجة الطاهرة الودود كنت أنا المذنب ، أي والله أنا المذنب في عرف الناس كلهم !..

وكنت المنصف ، العادل ، الطيب القلب ، صاحب الضمير الحي ، في عرف نفسي .. مالي وللناس ؟؟..

يكفيني هذا الشعور الذي راح منذ طلقت أمك يضفي على نفسي القلقة طمأنينة ورضى ..

لقد طلقت أمك يا بني لأنني أحبها كأكبر وأعمق وأطهر ما يكون الحب .

كنت أستمع إليه فاغراً فمي في دهشة واستغراب .

● قلت له :

ـــ إن كلامك يا أبي أوقعني في متاهة لا أعرف كيف أخرج منها .

أتقول إنك طلقت أمي لأنك تحبها كأكبر وأعمق وأطهر ما يكون الحب ؟؟ اسمح لي أن أقول لك إنني لم أفهم منطقك هذا ، ولا أحسبني سأفهمه أبداً .

ابتسم أبي مشفقاً وساخراً مني في آن واحد ثم قال :

ـــ أنّى لك يا ولدي أن تفهم قولي وأنت في عمرك هذا ؟ إن أباك لم يصل إلى ما وصل إليه الآن إلّا بعد أن مرَّ بتجارب كثيرة أتاحها له عمره الطويل ، كذلك وظيفته أتاحت له أيضاً الاحتكاك بالناس ، ومن ثمَّ الاطلاع

على مشكلاتهم. لأن أكثر الناس يلجؤون إلى المفتي ليحل لهم مشكلاتهم الخاصة.

أتعلم يا بني إن أعلى درجات الحب هي حين يتجرد المحب من أنانيته ويصبح خالصاً لمحبوبه فيؤثره على نفسه ويسعى لإسعاده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أؤكد لك إن هذا من أصعب الصعب. وقد آثرت أمك على نفسي حين فضلت سعادتها على سعادتي، ومصلحتها على مصلحتي.

أدرك تماماً إنك لا تؤمن بقولي هذا وربما وجدتني غريباً، وبعيداً عن المنطق ولكني سأشرح لك وجهة نظري شرحاً وافياً، وسأعمل جهدي لأقرِّبها من ذهنك الفتي وآمل أن تقتنع بها.

أما الآن، وقد حان موعد طعامنا، فقم بنا لنأكل ما يتيسر لنا، ثم نعود إلى هنا نصلي، ونطوف ثم ننتحي ركناً قصياً بعيداً عن الناس نقعد فيه، ثم أروي لك قصة حياتي مع أمك منذ تزوجتها إلى يوم صممت على طلاقها عساك تغفر لأبيك ما سببه لك من تعاسة وشقاء، ولكن شهد الله على الرغم منه. أنا أدرك تماماً إلى أي مدى أنت تحب أمك، وإلى أي مدى هي مولعة بك، وأن التفريق بينكما ذنب لا يغتفر. ولكن يا بني لا مفر مما قدَّره الله علينا..

كنت أحوج إلى هذا الحديث مني إلى الطعام، فما كنت أشعر بأية رغبة فيه ولكني أعرف أن لا جدوى من معارضة أبي، كما لا يجوز لي أن أؤخر موعد طعامه، فربما كان جائعاً. تبعته على مضض، أكلت دون وعي مني.

صلينا ثم بحثنا عن الركن القصيٍّ حتى وجدناه فقعدنا متقابلين، وراح أبي يروي لي قصة حياته مع أمي بتفاصيلها الدقيقة منذ تزوجها إلى اليوم الذي طلقها فيه كما وعدني تماماً وأنا أصغي إليه بحواسي كلها. هنا وقفت أمي عن متابعة حديثها وقالت:

ـــ فجأة لمح جدي أحدنا يتثاءب، فقال:

ـــ نعسنا يا أولاد فليذهب كل واحد منكم إلى فراشه، وغداً إن شاء الله سنتابع الحكاية.

ومهما رجوناه وألححنا في الرجاء كان يأبى علينا متابعة الحكاية، كان يقول لنا كما في ألف ليلة وليلة:

ـــ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

كانت أمي تقف عن الكلام حيث كان يقف جدها، فنعرف أن السهرة قد انتهت، وأن موعد نومنا قد حان.

* * *

٣

ولمّا كان مساء اليوم الثاني التأم شملنا حول المنقل، وتابعت أمي الحكاية قائلة:

ـــ أذكر أن جدي سألنا يومئذٍ قائلاً:

ـــ أتذكرون إلى أين وصلنا البارحة في الحكاية؟

• قالت له جدتي:

ـــ وصلنا بها إلى حين قعدتما أنت وأبوك في الركن البعيد عن الناس، وراح يحدثك عن حياته مع أمك بتفاصيلها الدقيقة. فيقول لها جدي:

ـــ يرحمك الله يا أم نجيب حقاً إلى هنا وصلنا... ويستأنف ما انقطع من حديثه فيقول: قال لي أبي:

ـــ الحياة يا بني لا تمر هينة لينة كما نحب ونشتهي، قد نصاب أحياناً

ونحن في غفلة من أمرنا بصدمات عنيفة لم تكن في حسباننا أبداً . وقد أصيب أبوك يا بني بصدمة غير متوقعة سببت له حزناً شديداً .

كان ذلك حين ماتت زوجتي الأولى إثر مرض مفاجئ لم يمهلها سوى ثلاثة أيام فقط . كانت رحمها الله وطيّب ثراها زوجة صالحة ودود ، تصغرني بسنوات عدة . عشت معها حياة سعيدة هانئة امتدت أكثر من ثلاثين سنة ، أنجبت لي خلالها البنين والبنات . تزوجوا كلهم وسكن كل واحد منهم في بيت خاص به حسب إرادتي ، ووفقاً لتوجيهي لهم .

ولما ماتت أمهم جاؤوني كلهم وراحوا يلحون علي أن أختار أحدهم فأسكن معه أو يأتي هو فيسكن معي في بيتي . ولكنني رفضت اقتراحهم رفضاً باتاً .

آثرت أن أظل وحدي في بيتي مع ذكرياتي الغالية ، لأفرغ لقراءاتي ، وصلواتي ، ودراساتي فلا يلهيني عنها شيء .

اتفقت مع خادم كان يأتيني كل يوم بضع ساعات فيقضي لي أشغالي كلها . واستمرت الأمور على هذا المنوال شهوراً عدة تسير سيرها الطبيعي دون أي إزعاج .

ذات يوم زارني جاري الذي هو جدك لأمك ، وكان من تلاميذي ومريديَّ ، وكان يسكن لصق داري تماماً .

بعد أن تحدثنا في أمور كثيرة ، قال لي :

ـــ جئت يا سيدي المفتي أطلب منك طلباً بسيطاً أرجو أن تحققه لي مهما يكن عسيراً عليك . قلت بنية صافية :

ـــ لن أتوانى عن تحقيق ما تطلبه مني يا جار الرضا مهما يكن طلبك عسيراً، إن كان في مقدوري، فأنت تعرف مكانتك عندي.

• قال وهو يفرك يديه وينظر إلى الأرض:

ـــ ليس من الصواب في شيء يا سيدنا أن تعيش وحدك في هذا البيت الكبير وأنت في مثل هذه السن دون زوجة ترعاك وتقضي لك حوائجك، وأنا يشرفني جداً ويسعدني يا سيدي المفتي أن تقبل ابنتي «كُلْ» زوجة لك.

شهقت من هذه المفاجأة غير المنتظرة، ثم ضحكت ورحت أمعن في الضحك وهو ينظر إليّ مشدوهاً.

ثم قلت له:

ـــ أمجنون أنت يا رجل؟.. أتريدني أن أتزوج من ابنتك «كُـلْ» التي هي في عمر حفيداتي؟؟

حقاً لقد مضى زمن طويل دون أن أراها تلعب في الحارة مع لدَّاتها كما كانت عادتها، أين هي الآن؟

• قال:

ـــ لقد أصبحت «كُـلْ» صبية ناضجة، وقد وقرت في البيت تساعد أمها على تدبيره. وماذا في الأمر إذا تزوجت امرأة صغيرة؟ أما لك إسوة برسول الله ﷺ؟ ألم يتزوج من السيدة عائشة وهي طفلة، وهو قد تجاوز الخمسين من عمره كما حدثتنا أنت عندما رويت لنا سيرته؟..

أما ابنتي فلم تعد طفلة، لقد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها.

• قلت له وأنا أُربت على كتفه وألاطفه :

ـــ لكنني في حدود السبعين من عمري كما تعلم، ولست نبياً... فاسمح لي إذن أن أعتذر لك لأنني لا أستطيع تحقيق رغبتك هذه، شاكراً لك اهتمامك بي .

سكت على مضضٍ وهو ينظر إلي نظرات عاتبة، ثم قال وهو يودعني :

ـــ لا، لا لن أقبل عذرك أبداً، سأترك لك فرصة لتفكر بالأمر، وسأعود إليك بعد حين .

ويخرج مسرعاً دون أن يستمع إلى جوابي .

ذات صباح، وكان قد مضى على زيارته بضعة أيام، طُرق بابي فلما فتحته وجدت جدك ومعه صبية حلوة ممشوقة القوام، تبدو متينة البنيان، ذات جمال أخّاذ .

• قلت لجدك وأنا أنظر إلى الصبية :

ـــ من هذه الحلوة يا أبا عثمان ؟..

• قال وهو يبتسم ويشير إليها :

ـــ هذه ابنتي «كُـلْ» . ألم تعرفها يا سيدي المفتي ؟

• قلت دهشاً :

ـــ ما شاء الله، ما شاء الله أحقاً هذه «كُـلْ» ؟ بالأمس القريب كانت

طفلة صغيرة وكنت أداعبها كلما رأيتها تلعب في الحارة. أتذكرين يا «كُـلْ» كيف كنت أشدك من ضفيرتيك الطويلتين. وكنت تركضين أمامي، وأنا أتبعك شادّاً ضفيرتيك وأنت تصهلين مقلدة المهرة الصغيرة.

ابتسمت بخفر ثم قالت:

ـــ ما زلت أذكر ذلك يا سيدي المفتي.

عندئذ قال لي جدك:

ـــ فما رأيك الآن بما تحدثنا به منذ أيام قليلة؟

• قلت:

ـــ اتقِ الله يا رجل، وانس هذا الموضوع.

• قال وهو يشير إلى ابنته:

ـــ ولكن ابنتي يشرفها ويسعدها كثيراً أن تتزوجها.

ضحكت ساخراً من كلامه، وقلت للصبية:

ـــ أحقاً ما يقوله أبوك المجنون هذا «ياكُـلْ».

نظرت إليَّ بجرأة ما كنت أتوقعها منها، وكأنها تحتج على قولي هذا ثم قالت بلهجة تدل على الصدق والثقة بالنفس:

ـــ لا يا سيدي المفتي ليس أبي مجنوناً كما تعتقد، هو يعرف تماماً أنه يسعدني ويشرفني أن أصبح زوجة لك.

عقدت المفاجأة لساني، فصمتُّ برهة أفكر ثم وجدتني أقول لها:

ـــ أخشى يا صغيرتي أن تندمي ذات يوم على تسرُّعك هذا.

وإذا جدك يقول:

ـــ معاذ الله يا سيدي أن تندم ابنتي على زواجك منها، إنه لشرف عظيم لها أن تصبح زوجة المفتي، تأكد أنني لم آتِ بها إليك إلّا بعد أن سألتها رأيها، وأيقنت من جوابها أنها راضية الرضا كله عن هذا الزواج الذي ستفخر به أمام لدّاتها.

إن ابنتي يا سيدي فتاة عاقلة وذات خلق كريم، تجيد الطبخ والخبيز وتنظيف البيت كأحسن ما يمكن، كما أنها تجيد نسج السجاد، وحياكة الصوف. وستقوم بهذين العملين في أوقات فراغها.

ثم قال لي أبي:

ـــ وكأني يا بني قد أُخذت بجمال أمك وقوة شخصيتها، وحسن تصرفها، ولأمر قدره الله عليَّ وجدتني أقول دون تردد:

ـــ على خيرة الله إذن..

• قال جدك على الفور:

ـــ لنقرأ الفاتحة إذاً.

ورحنا نقرأها نحن الثلاثة معاً.

فلما فرغنا منها، قال جدك:

ـــ سأقيم لك عرساً يا سيدي المفتي لم يسبق له نظير في بلدنا.

• قلت :

ـــ إلّا هذا يا أبا عثمان ، أرجوك أن تُعفيني منها ، أتريد أن تجعلني هزأة بين الناس ؟ أنا في هذا العمر وأزف مثل الشباب ؟ لا لا ، هذا أمر مستحيل .

ثم أرجوك أن تكتم هذا الأمر الآن حتى عن أقرب الناس إليك ، لأنني أريد أن أجعله مفاجأة لأولادي ، كي لا أدع مجالاً لأية مناقشة في هذا الصدد ، بل سأجعلهم مرة واحدة أمام الأمر الواقع .

• قال جـدُّك :

ـــ لك ما تريد يا سيدي .

• قلت :

ـــ أمهلني الآن أسبوعاً فقط ، ثم سأقيم في داري وليمة على العشاء أدعو إليها أولادي ، وأحفادي ، وكنّاتي وأصهاري ، وأنت أيضاً وزوجك وأولادك . قبل الوليمة بساعات تأتني أنت بشاهدين وشيخ يعقد لنا .

وهكذا سيتم كل شيء على أهون سبيل .

لم يعترض جدك على كلامي هذا بل قال :

ـــ أنت صاحب الأمر . الأمر لك .

لقد كان زواجي مفاجأة مذهلة لأخويك جعلتهما لا يجدان جواباً ، بل بدا لي أنهما سكتا على مضض .

أما أختاك فاطمة وزينب فقد آلمني أن أرى الدموع حيارى في عيونهما

دون أن تنطقا بشيء. لا شك أنه صعب عليهما أن تحتل هذه الصغيرة مكان أمهما في هذا البيت، وكان كل ركن فيه يحمل منها ذكرى طيبة، وكأنني أراها بيننا تنظر إلي عاتبة، فإذا الدموع تطفر إلى عيني أيضاً وأعجز عن حبسها، وأجدني أقول لابنتي مرتبكاً وبصوت تخنقه الدموع:

ـــ الزواج قسمة ونصيب، وقدر من الله تعالى، فلا تحقدا على أبيكما لأنه لا يملك أن يهرب من قدره.

فإذا هما تأتيان إلى جانبي تقبلان يدي وتقولان لي:

ـــ معاذ الله يا أبي أن نحقد عليك... نحن كلنا نريد لك الخير والسعادة، والخير فيما اختاره الله.

كانت أمك وأهلها يجلسون في ركن من الغرفة صامتين يراقبون ما يحدث بيننا وإذا ابنتيَّ تذهبان إلى أمك تصافحانها وتباركان لها، ويقتدي بهما أخواهما.

ونجلس إلى المائدة وقد ساد بيننا جو من الودِّ والتفاهم، وقد بدا كل شيء طبيعياً لا تكلف فيه أكثر مما كنت أنتظر وأتوهَّم، وكأن حملاً قد أزيح عن صدري عندما رأيت أولادي قد تقبَّلوا أمر زواجي بكثير من الرضا والتسامح.

هكذا يا بني تم زواجي من أمك، ولم أندم عليه شهد الله قط.

لقد كانت أمك الزوجة الطيبة التي رعتني بعطف وحنان، ولا أذكر أنني أخذت عليها شيئاً...

بعد عام واحد من زواجنا رزقنا الله بك، ففرحنا أنا وأمك بك أشد الفرح. ولا أذكر أنني تولعت بولد من أولادي كما تولعت بك أنت، لأنني رزقت بك على كبر، ويبدو أنه كلما كبر الإنسان ترقّ عواطفه، ويضعف أمامها، وينقاد لها، فرحت أدللك كما لم أدلل واحداً من أولادي مثلك. كما أصبحت مطمئناً على أمك في أثناء غيابي عن البيت فلا أخشى عليها من الوحدة وما ينجم عنها من ملل وضيق، لأنك أصبحت شغلها الشاغل، كانت تناغيك وتغني لك بصوتها الشجي الحنون فأشعر أن بيتنا أصبح يرقص طرباً. فإذا نمت راحت تخيط لك الثياب الزاهية أو تنسجها من الصوف الناعم ثم تعرضها عليَّ قائلة:

ـــ كم سيبدو ابننا جميلاً عندما يكبر ويرتدي هذه الثياب.

كانت أمك تبدو لي وكأنها عادت طفلة صغيرة تلعب بالدمى، وكنت أنت دميتها المفضلة، كنت أشاطرها فرحها وسعادتها، وكأنني أنا أيضاً قد صغرت عن عمري عشرات السنين.

• قالت أمي:

ـــ كان جدي يقطب حاجبيه الكثيفين، وكأني أراه أمامي الآن، وهو يمد يده إلى جيبه ويخرج منها ساعته ذات السلسلة الذهبية ينظر إليها ويقول لنا:

ـــ أوف، لقد سرقنا الوقت يا أولادي، هيّا بنا إلى النوم لنستيقظ باكراً كي لا تفوتنا صلاة الصبح.

* * *

٤

ابتدأت أمي حديثها الليلة، وهي تصف لنا كم كان جدها يبدو سعيداً وهو يروي حكايته، وما أكثر ما كان يرويها، لأبنائه وأحفاده، وأهله وأصدقائه وجيرانه حتى رسخت في أذهاننا جميعاً. ثم قالت:

ـــ أذكر ليلتئذٍ أن جدي ظل برهة يعبث بسبحته، تارة ينظر إلى بعيد، وتارة يغمض عينيه كأنه يستعرض ذكرياته، أو بالأحرى كأنه يعيشها، ثم ابتدأ حديثه قائلاً:

ـــ سقى الله تلك الأيام ما كان أحلاها، لقد بلغت العاشرة من عمري وحياتي تجري هينة لينة كما يجري النبع الصافي في السهل الأخضر، لم يعترض جريانه كدرة واحدة.

عندما بلغت الثامنة من عمري بدأ أبي يعلمني اللغة العربية قراءة وكتابة وكنت أجد صعوبة بالغة في تعلمها لا سيما قواعد الصرف والنحو، فإذا قصرت قليلاً في الحفظ كان أبي يثور علي، وحيناً يلطف بي.

كان يقول لي :

ـــ أريدك أن تبذل ما استطعت من الجهد لأنني أُعدّك لتتبوأ مكاني ذات يوم فتصبح مفتي هذه البلاد . وإذا مد الله في عمري سأرسلك إلى مصر كما أرسلني أبي لتتم دراستك هناك في جامع الأزهر ، ثم تعود إلينا عالماً مرموقاً . كان هذا الوعد يحفزني على الاجتهاد مما يجعل أبي يرضى عني ، ويزيد لي في ساعات الدرس .

كانت أمي تقول له :

ـــ إنك ترهق الولد وتحمّله فوق طاقته . دعه يخرج من البيت قليلاً ليلعب فيقول لها :

ـــ اسمعي يا أم صالح ، أنا رجل كبير على حافة قبري ، أحب أن أزود ابني بالعلم قبل أن أموت قدر ما أستطيع ، ويستطيع هو . لأن العلم أجدى ثروة أتركها له .

فتقول أمي :

ـــ مدّ الله في عمرك يا سيدي المفتي ، ولا حرمنا الله منك ...

فيبتسم أبي ويقول لها :

ـــ أوَنستطيع أن نتجاوز سنّة الكون ؟ كل حي إلى زوال مهما مدَّ الله في عمره .

في تلك السنة نفسها نشبت في داغستان ثورة ضد الامبراطورية الروسية التي راحت تهاجم بلادنا الصغيرة الفقيرة لتضمها إلى امبراطوريتها

الغنية الواسعة الشاسعة. ويهبّ أهل داغستان يدافعون عن أرضهم دفاع المستميت. وكم كانوا يبذلون أرواحهم رخيصة في سبيل الحفاظ عليها. لأن وطن الإنسان يا بني وتربة آبائه وأجداده بمثابة عرضه، واستباحتها استباحة لشرفه وعرضه. وحاشا للداغستاني أن يرضى بذلك، فالموت على صهوة جواده أحب إلى نفسه وأشهى مهما يكن مُـرّاً من الذل والهوان اللذين ينجمان عن الخضوع للأجنبي المستبيح ماليس له.

كانت تنشب معارك ضارية بيننا وبين الروس، وكان رجالنا ينتصرون النصر تلو النصر على الرغم من عدم التكافؤ مع العدو في العدد والعتاد، لأن الداغستانيين كانوا فرساناً أشاوس متمرسين على الحروب في الجبال يعرفون مسالك جبالهم الوعرة، ومهاوي وديانهم السحيقة، فينصبون الكمائن وراء الصخور الشاهقة حيث معابر الطرق التي لا يعرفها غيرهم فيستحكمون جيش العدو، وسرعان ما يردونه على أعقابه مهزوماً شر هزيمة بعد أن يكبدوه خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ولا يستشهد من فرساننا إلّا القليل من المغامرين الأشاوس الذي يعتقدون أن أرواحهم لا تساوي حفنة تراب من أرض الوطن.

كانت بلاد الداغستان كلها في فورة غضب عارمة تعم الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على السواء. وكانت مآتم الشهداء تقام كأنها الأعراس تدق فيها الطبول، وتغني الصبايا مراثي الشهداء، وقلّما كان يُعرف ناظمو هذه المراثي لأنها نابعة من ضمير الشعب، كانت تنطقها الجماعات ارتجالاً تعبيراً عن شعورها الغاضب، وكانت الأمهات الثكالى يغنين مرفوعات الرؤوس فخراً لأنهن قدمن فلذات أكبادهن في سبيل الوطن.

وتعلق أمي قائلة :

ـــ كان يبدو الفخر والاعتزاز على وجه جدي وهو يحدثنا عن بطولة مواطنيه ، ثم يستأنف حديثه قائلاً :

ـــ كان أبي يتحدث إليَّ بهذا كله ، وأنا أصغي إليه مأخوذاً بحديثه ، أتذكر شيئاً مما يقوله ما زال عالقاً بذهني على الرغم من صغر سني آنئذٍ كمآتم الشهداء ، أو استقبال المقاتلين عند عودتهم من المعارك التي خاضوها . كان يخرج أكثر أهل البلد ليستقبلوهم بالأناشيد والتصفيق .

ذات مرة خرجت مع أخوالي لاستقبال من هذا القبيل ، لقد تأثرت بكل ما رأيت ، وكم تألمت وحزنت عندما شاهدت أحد الفرسان يحتضن جثة شهيد أركبها أمامه على الحصان وشدها إلى صدره ، وسحب وراءه حصان الشهيد ، وكان يهتف هتافات حماسية تمجد الشهادة في سبيل الوطن ، وتزكي هتافاته حماسة الناس حتى اللا مبالين منهم ، وتدفعهم إلى الالتحاق بالمحاربين .

وقد زاد تأثري عندما علمت أن الرجل كان يحتضن جثة ابنه الشهيد الذي كان يرافقه في الجهاد وتلوح على جبين جدي سحابة حزن فيصمت قليلاً وقد أغمض عينيه كمن يستعيد ذكرى مؤلمة ثم يقول : جُرح الفتى في أثناء المعركة ، ولكنه ظل يقاتل ودمه ينزف . وفي طريق العودة فارق الحياة على أبواب بلده فاحتضن أبوه جثته . كان الاستمرار بهذه الحرب غير المتكافئة صعباً ، بل مستحيلاً رغم انتصاراتنا الرائعة . لقد بدأت ذخيرتنا تنفد ، وخيولنا تنقص إثر كل معركة ، حتى أصبحنا لا نستطيع شراء ما يلزمنا ، لأن المال ينقصنا أيضاً ، فمنذ انصرف رجالنا إلى الحرب تضاءلت مواردهم ، بل أصبحنا نخشى المجاعة فيما إذا استمرت هذه الحرب زمناً طويلاً .

ويخطر لأبي أن يدعو شيوخ بلادنا ومفكريهم إلى اجتماع يُبحث فيه وضعنا الراهن الذي لا يبشر رغم انتصاراتنا بمستقبل حسن. وسرعان ما استجابوا لدعوته فعقدوا اجتماعاً في أحد الجوامع ضمَّ ممثلين عن بلادنا كلها. وبعد بحث طويل اتفق المجتمعون أن نلجأ إلى الامبراطورية العثمانية نطلب منها أن تدعم ثورتنا بالسلاح والمال. أليست هي حامية الإسلام؟. وسلطانها خليفة المسلمين، وخادم الحرمين الشريفين؟ ونحن إسلام نحارب الروس الكفرة الذين اعتدوا علينا ليضموا بلادنا إلى بلادهم، وهم أيضاً أعداء الامبراطورية العثمانية فما أحراها أن تدعم ثورتنا قدر طاقتها.

وينتخب المجتمعون وفداً للسفر إلى القسطنطينية ومقابلة السلطان محمود. قال أبي:

وقد انتخبوني واحداً من أعضاء الوفد، فحاولت جهدي أن أعتذر لأن السفر إلى القسطنطينية ليس سهلاً لمن كان في مثل عمري قد شارف الثمانين، فلم يقبلوا اعتذاري بل أصروا على أن أكون بين أعضاء الوفد، لا سيما وأنا صاحب الفكرة. وما كان لي إلّا أن أستجيب إلى هذا الواجب الوطني مهما كلفني من مشاق.

منذ تلك اللحظة يا بني تغير مجرى حياة أبيك كله. وكنت أنا الجاني على نفسي.

أتذكر يا صالح أنك ذهبت وأمك لتقيما في دار جدك أثناء غيابي لأنني خشيت أن يصيبكما مكروه إذا طال سفري وأنتما وحدكما في هذا البيت الكبير.

● قلت:

ـــ أذكر ذلك يا أبي، وأذكر أيضاً أنك أعطيت أمي كيساً مليئاً بالنقود، وقلت لها أمامي:

ـــ إياك أن تطلبي شيئاً من أحد لقضاء شؤونك، وشؤون ابنك الخاصة.

● قال أبي:

ـــ ما شاء الله.. هذا صحيح والله، وإن ذاكرتك قوية يا بني. ثم قال:

ـــ لقد شعرت بغصّة وأنا أودع أمك كأن شعوراً مبهماً أوحى إليَّ أنه الوداع الأخير.. لن أحدثك عما تحملنا من مشاق في هذه السفرة الطويلة، بخاصة والدك الشيخ. المهم أننا وصلنا إلى القسطنطينية، واستطعنا بوساطة بعض الموظفين الكبار من الجراكسة أن نحظى بمقابلة السلطان محمود خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين. لقد استقبلنا السلطان بحفاوة أكثر مما كنا ننتظر، ولما عرضنا عليه قضيتنا أصغى إلينا باهتمام بالغ، ثم بارك ثورتنا.. وشجعنا على المضيِّ فيها، ومحاربة الروس الكفرة أعداءنا وأعداء الامبراطورية العثمانية التي يسعدها أن تتحمل قسطاً وافراً من تكاليف هذه الثورة، حسب قوله.

ويأمر السلطان كاتبه أن يحرر لنا كتاباً رسمياً. ثم يمهره بأمضائه وهذا ما يسمى به «الفرمان»* دفعه إلينا وطلب منا أن نقدمه إلى أقرب وال عثماني من

* هذا الفرمان مثبت في آخر الكتاب لمن يحب الاطّلاع عليه.

حدود داغستان ليمدنا حسب أمر السلطان المكتوب في «الفرمان» بالمال والعتاد والسلاح وبكل ما تحتاجه الثورة من دعم.

ويمد أبي يده إلى عبّه ويخرج منه كيساً جلدياً يفتحه ثم يخرج منه «الفرمان» وينشره أمامي ويقول لي:

ـــ إنني أخشى يا بني على هذه الوثيقة من الضياع، فربما احتجنا إليها ذات يوم لذا أحملها معي أينما ذهبت. فإذا مت هنا أخرجها من عبّي وضعها في عبّك، واحرص عليها ما استطعت فهي هامة جداً بالنسبة إلينا. ثم يفردها أمامي، ويقرأ لي محتواها، ويفسر لي ما عسر عليّ فهمه.

وتقوم أمي وتأتي بـ «الفرمان» وتنشره أمامنا وتقول لنا:

ـــ من شاء منكم أن يقرأه بإمعان فليقرأه غداً على مهل.

وإذا كلنا نسألها بصوت واحد:

ـــ لماذا لا يزال هذا «الفرمان» عندكم، ألم يقدمه الوفد إلى الوالي العثماني؟

• قالت أمي:

ـــ هذا ما سأشرحه لكم في سهرة الغد إن شاء الله كما شرحه لنا جدي.

* * *

٥

• قالت أمي :

سأل جدي أباه السؤال نفسه الذي سألتمونيه البارحة :

ـــ لماذا ما يزال هذا « الفرمان » عندك يا أبي ، لـمَ لم تقدموه إلى الوالي العثماني القريبة ولايته من حدود داغستان ؟؟..

أجابه أبوه :

ـــ كيف نقدم « الفرمان » وقد قبض علينا قبل أن نصل إلى هذه الولاية .

سأل جدي أباه :

ـــ ومن الذي قبض عليكم ؟؟

أجابه أبوه ساخراً :

ـــ قبض علينا من قبل الدولة العثمانية نفسها يا بني وبأمر من السلطان محمود ذاته، ونفي كل واحد منا إلى بلد يبعد كثيراً عن البلد الذي نفي إليه الأخير. وكان من حسن حظي أنني نفيت إلى دمشق البلد الطيب المضياف. هذا هو سبب وجود «الفرمان» معي، لأنهم نسوا أن يأخذوه مني.

• قال جدي مستغرباً:

ـــ ماهو الداعي إلى هذا التصرف الغريب من قبل الدولة العثمانية؟

أجابه أبوه:

ـــ إلى الآن يا بني لم أجد لهذا التصرف تفسيراً يقنعني تماماً.

تُرى هل اتفق العثمانيون والروس، العدوان اللدودان من ورائنا على إحباط ثورتنا لقاء تنازلات على حسابنا من الطرفين؟ لا أدري. وبعض الظن إثم.

أم تُرى هل جاء من نبّه السلطان محمود ـــ من مستشاريه المنافقين ـــ من قال له:

ـــ إن نجاح ثورة شعب صغير ضد دولة كبيرة يكون حافزاً على نشوب ثورات من قوميات صغيرة خاضعة لدول كبيرة. وما أكثر ما تضمّ الامبراطورية العثمانية من قوميات صغيرة خاضعة لحكم السلطان على الرغم منها. وانطلاقاً من هذا المبدأ يجب قمع هذه الثورة في مهدها مهما يكن وراءها من فوائد.

تصور يا بني كيف يلعب الكبار بالصغار دون أي رادع!.. كيف تنتقض العهود، وتنكث المواثيق، وتموت الضمائر!.. كيف يتعامى أصحاب

المصالح عن الحق الصريح الواضح، ولو كان وراء هذا التعامي إبادة شعب بأسره!...

• قال جدي:

ـــ إن ما أسمعه الآن منك يا أبي يجعلني أشمئز من هذه الدنيا...

• أجابه أبوه:

ـــ إنك يا بني ما تزال صغيراً، بريئاً، لا تعرف من أمور دنيانا إلّا القليل، وكلما عرفتها سيزداد اشمئزازك منها إلى أن تعتاد عليها، وتفرق وجهيها الخير والشر، فالدنيا يا بني لا تخلو من الأخيار أيضاً ولو أنهم قلة. فلا تجعل اليأس يتسرب إلى نفسك الغضّة البريئة.

• قال جدي:

ـــ إن كلامك يا أبي ينير لي دربي ويثلج صدري.

لكنني أحب أن أسألك كيف استطعت أن تعيش في دمشق وحيداً غريباً فترة طويلة ريثما وصلنا نحن من داغستان؟

• قال:

ـــ لكأن السلطان محمود أراد أن يكفر عن فعلته تلك فعين لكل واحد من أعضاء الوفد راتباً مرموقاً من ماله الخاص كنا نتقاضاه أول كل شهر طول إقامتنا في المنفى. فإذا مات السلطان أو عُزل انقطع الراتب عنا وأصبحنا فقراء على باب الله في بلد غريب. لكن حاشا لله لم أشعر بالغربة في دمشق الفيحاء أبداً، لكم أحببت هذا البلد الجميل المضياف الذي فتح لي ذراعيه

وحضنني وكأنني أحد أبنائه البررة. فما أسرع ما أصبح لي أصدقاء من كبار العلماء والمحدثين تعرفت إليهم في الجوامع، وقد قدروا علمي حق قدره، وأشفقوا علي من هذه الظروف القاسية التي أمر بها. ففتحوا لي صدورهم، وآنسوا غربتي بكثير من الود والحنان، فكانوا يتبارون في دعوتي إلى بيوتهم ريثما تصل أسرتي من داغستان. لأنني منذ وصلت إلى دمشق كتبت إلى أخويك أشرح لهما ما حدث لي، وأطلب منهما أن يبيعا ما نملك ويلحقا بي إلى دمشق. وقد ساعدني أصدقائي الدمشقيون في إيصال هذه الرسائل إلى داغستان بواسطة معارفهم من التجار السوريين الذين كانوا يسافرون إلى بلاد العجم للتجارة، ولهم هناك أصدقاء من التجار العجم بإمكانهم بعث رسائلي مع عملائهم إلى بلاد الداغستان. وقد اقترح علي أصدقائي أن أكتب عدة رسائل، فإن فشلت واحدة لا بد أن تصل الثانية أو الثالثة، وقد نجحت هذه الخطة ووصلت الرسائل بسرعة. فشكرت لأصدقائي اهتمامهم بي، وحسن تدبيرهم هذا.

والآن قد آن الأوان لأشرح لك موقفي من أمك. أؤكد لك أنني كنت في أشد الشوق إليها. فكرت بأمرها وأطلت التفكير ليلتين كاملتين لم أعرف خلالهما النوم إلّا لماما.

كانت تتنازعني شتى العواطف، كنت ألجأ إلى ضميري ووجداني أسألهما:

هل يجوز لي في سبيل حبي لنفسي أن أسيء إلى هذه المرأة التي رعتني أحسن رعاية، ومنحتني عشر سنوات من صباها الغض كانت أحلى سني حياتي كلها؟؟

أنا رجل هرم تخطيت الثمانين من عمري، معنى ذلك أن نهايتي قد اقتربت، فإذا طلبت من أمك أن تأتي من داغستان إلى دمشق لتلحق بي، هل أضمن إذا مت ألّا يسيء إليها أولادي وكناتي وأنا أعرف كم يغارون منها، ويكيدون لها؟.. ما أبعد دمشق عن داغستان.. وهل تستطيع امرأة صبية كأمك إذا أرادت الرجوع إلى بلدها أن تسافر وحدها مع ابنها الصغير هذه السفرة الشاقة؟

يجب أن أتجرَّد من أنانيتي في سبيل حبي الكبير لهذه المرأة الملاك.

يجب أن أطلق «كُـلْ»!...

ما أصعب وقع هذه الكلمة على نفسي!...

كلما أسرعت في الطلاق منحتها فرصة أكبر لتتزوج من شاب يماثلها في العمر، أو يكبرها قليلاً. أما يكفيها أنها ظلَّت عشر سنوات زوجة لرجل من عمر جدها؟.. إن الإقدام على هذه التضحية يريح ضميري، لا سيما حين أوقن أنني قد ضمنت لها مستقبلاً أحسن مما لو ظلَّت زوجة لي ثم تصبح أرملة في عز شبابها.

إن أمك يا بني جميلة، وذكية، وصغيرة، وذات سمعة طيبة، فما أكثر الذين يتمنون الزواج منها.

ماذا أقول لك يا بني، والله إن دموعي كانت تجري على خديَّ وأنا أكتب لها وثيقة الطلاق.

أتصدق أن أباك لم يعرف البكاء طول حياته المديدة ــ على الرغم من

المآسي والمحن التي مرَّ بها ــ إلّا مرتين في حياته ، يوم ماتت زوجتي الأولى ، ويوم طلّقت زوجتي الثانية .

أرسلت رسالة إلى جدك ذكرت فيها خلاصة ما قلته لك الآن وضمنتها وثيقة الطلاق . ثم طلبت منه بإصرار أن يرسلك مع أخويك ، وما أصررت على ذلك إلّا لاعتقادي أن وجودك مع أمك سيحول دون زواجها . فأنا موقن أنها سترفض أي زواج ، مهما يكن ، في سبيلك أنت لتتفرغ لك وحدك ، وهذا ليس في صالحها أبداً .

لقد رجوت جدك أن يكتم عنها أمر هذا الطلاق ويتمارض ثم يقنعها أنه لا يأمن أن يرسلها مع أولاد زوجها في هذه السفرة الشاقة الطويلة ، وسيسافر معها بنفسه إلى دمشق حين يشفى من مرضه لتلتحق بزوجها وابنها . أما صالح فمن الضروري أن يذهب مع أخويه ، لأن أباه يصر على ذلك حسب ما ورد في الرسالة .

وقد نفذ جدك ما طلبت منه بحذافيره ، وقد انطلت هذه الحيلة على أمك وبعد أن سافرت أنت أخبرها أبوها بالواقع .

● قلت بصوت متهدج :

ــ لا شك أن أمي قد بكت كثيراً عندما فوجئت بأمر طلاقها وعرفت أنها فقدتني إلى الأبد !..

● قال لي :

ــ لا تكن متشائماً يا بني ... لماذا إلى الأبد ؟ هل كتب علينا أن نعيش في المنفى مشردين عن وطننا طول حياتنا ؟ هذه فترة عصيبة لا بد أن تمر

ثم يفرج عنا ونعود إلى بلادنا، عندئذٍ ستصبح قريباً من أمك، وستستطيع أن تذهب إليها وتراها متى شئت.

وإن قدر علينا لا سمح الله ألّا نعود إلى بلادنا فإنني أوصيك ألّا تنسى أمك أبداً، فإذا كبرت واشتغلت، وأصبح لديك مورد خاص، يجب عليك أن تقتصد من مواردك ما استطعت حتى إذا توفر لديك من المال ما يكفي نفقات السفر إلى داغستان يجب عليك أن تذهب إلى أمك وكم ستكون فرحتها بك كبيرة لأنك لم تنسها خلال هذا الزمن الطويل. كما أوصيك أيضاً أن تسعى جهدك لتأتي بها إلى الديار المقدسة لتؤدي فريضة الحج، لأن أكبر أمنية للمرأة الداغستانية هي أن تحمل لقب حاجّة، ونادرات جداً النساء الداغستانيات اللواتي استطعن أن يظفرن بهذا اللقب الذي يضفي على حاملته العز والوقار. لأن السفر من داغستان إلى الحجاز شاق على الرجال فكيف بالنساء؟

كما أنصحك ألّا تتبادل الرسائل مع أمك، لأن تبادلها بينكما سيصبح مصدر تشويش لكليكما. قد تتأخر الرسائل لأمر ما، أو يحدث لأحدكما مفاجأة غير سارة فيكتب للآخر يشكو إليه همه، هذا كله يسبب لكما القلق والاضطراب وما كان أغناكما عنهما..

والآن أحب أن أسألك يا بني، وأصر أن تجيبني بصراحة تامة:

ـــ هل غفرت لأبيك موقفه من أمك بعد أن عرفت الأسباب الداعية لاتخاذه هذا الموقف؟؟

● قلت:

ـــ بل أرجو أن تغفر أنت لي يا أبي لأنني أسأت الظن بك ـــ وبعض الظن إثم ـــ ولكن بعد أن شرحت لي سبب موقفك هذا من أمي أدركت أن الدافع إليه هو إنسانيتك المفرطة، وضميرك الحي، وحبك الكبير لأمي الذي أدى بك إلى نكران الذات في سبيل من تحب.

إنني لا أعتب عليك يا أبي ... بل أعتب على حظي العاثر. لأنه كتب علينا أنا وأمي أن نفترق عن بعضنا إلى الأبد ونحن لا نزال على قيد الحياة، وفي أول الشباب.

• قال أبي:

ـــ كم مرة قلت لك لا تكن متشائماً. استغفر ربك يا بني، هذا قدر منه لا يجوز لنا أن نعترض عليه. تفاءل بالخير يابنيَّ تَجِدْه. من يدرِي فقد نعود بعد فترة قصيرة إلى بلدنا وعندئذٍ ستعود إلى أحضان أمك وستنعم بصحبتها ولو كانت متزوجة من غير أبيك. إن زوجها رجل طيب، ذو خلق كريم.

• قلت:

ـــ أوَتعرفه يا أبي؟.

• قال ضاحكاً:

ـــ وكيف لا أعرفه وأنا الذي اخترته لأمك..

ذهلت من قوله هذا وقلت له:

ـــ أنت الذي اخترته لها؟؟ يا له من أمر عجيب غريب.. وكيف تم ذلك وأنت في دمشق، وهي في داغستان؟! قال أبي:

ـــ إن جدك رجل طيب ودود، لم تتزعزع ثقته بي بعد طلاقي لابنته، لأنه أدرك سبب هذا الطلاق، وقدر موقفي حق قدره، بل أعجب به، واقتنع أنه لصالح ابنته.

وذات يوم وردتني رسالة يقول فيها فيما يقول:

ـــ لقد تقدم لخطبة ابنتي «كُـلْ» رجلان هما فلان وفلان، وأعتقد أنك تعرفهما حق المعرفة، لذا أحببت أن آخذ رأيك فأسألك أيهما تختاره لها؟

• قال لي:

ـــ ضحكت من رسالة جدك هذه.. لكأنه يسألني عن زواج ابنة لي، لا عن زواج امرأة كانت زوجة لي مدى عشر سنوات...! لم أخيِّب ظنه، أرسلت إليه رسالة قلت فيها:

ـــ الأمر في هذا الاختيار لا يعود إليَّ، ولا إليك، إنما يعود إلى أم صالح نفسها، فهي امرأة عاقلة تعرف ماذا تريد. لكنني أتمنى لها أن يقع اختيارها على فلان، لأنني أجده كفؤاً لها، فأنا أعرفه رجلاً طيباً، ديناً، كريم الخلق.

بعد بضعة شهور وصلتني رسالة من جدك يقول فيها:

ـــ لقد اختارت ابنتي من اخترته أنت لها، وكما قدَّرت تماماً فهو رجل طيب، تقي وورع ومتزن على الرغم من صغر سنه. وسيسافر بعد زواجه من ابنتي بشهور قليلة مع رهط من رجال بلدنا إلى الديار المقدسة لتأدية فريضة الحج، نسأله تعالى أن يدعونا إلى زيارة بيته العتيق كما دعاهم.

لهذا السبب يا بني جئت بك إلى الحج على أمل أن تجتمع بزوج أمك ، وأنا واثق أنه سينفتح له قلبك قبل أن تعرف أنه أصبح زوج أمك . فإذا قُـدِّر لك أن تعود إلى داغستان لن تشعر بأي حرج حين تقابله لأنك كسرت هذا الوهم قبل حين . كما ستطمئن أمك عندما سيحدثها عن التقائه بك في الحرم الشريف .

لقد كان لنا ما أردنا واجتمعتَ بالرجل ، وكل شيء يجري بمشيئته تعالى .

• ثم قال أبي :

ـــ لقد مضى عليَّ وأنا أتحدث إليك وقت طويل حتى تعبت ونشف ريقي . قم بنا الآن نشتري شيئاً نشربه ، ثم نتوضأ قبل أن تدركنا صلاة العصر .

خرجنا من الحرم الشريف إلى السوق ، واشترينا كوبين من شراب التمر هندي ، ثم أكلنا شيئاً خفيفاً ثم توضأنا ، وما كدنا ننتهي من وضوئنا حتى أذن المؤذن لصلاة العصر ، فصلينا ثم عدنا إلى مكاننا في الركن البعيد .

وهـمَّ أبي أن يخرج مصحفه من كيسه ليقرأ فيه كعادته بعد كل صلاة .

• قلت له :

ـــ أرجوك يا أبي أحب قبل أن تبدأ قراءتك أن أسألك سؤالاً .

• قال متأففاً :

ـــ ألا تنتهي أسئلتك اليوم ؟ سل ما تريد وسأجيبك بصراحة تامة على شرط أن يكون آخر سؤال ، لقد تعبت منك ومن أسئلتك .

• قلت :

ـــ أحب أن أعرف ماذا جرى للثورة في داغستان ؟ ألا تزال قائمة ؟ كنت أسمعك تتناقش بشأنها مع أخويّ فلا أفهم من نقاشكم شيئاً .

• قال :

ـــ يؤسفني جداً أن أقول لك إنها ما تزال قائمة !...

• قلت مستغرباً :

ـــ لماذا يؤسفك إذا كانت لا تزال قائمة ؟؟ أعرف أنك من أكبر الداعين إلى هذه الثورة .

• قال متململاً :

ـــ أسئلتك أكبر منك .. لكن لا مناص لي من الإجابة عليها . لأنني أحب أن أشرح لك كل شيء لأنوِّر ذهنك .

لقد أيقنت يا بني بعد التجربة ، والتفكير الطويل أن مصير ثورتنا إلى الفشل الفظيع لا محالة مهما حققت من انتصارات آنيَّة . لأن بلادنا الصغيرة والفقيرة لا تستطيع أن تصمد أمام الامبراطورية الروسية العظيمة ما لم تدعمها دولة كبيرة تتفق مصالحها مع مصالحنا ، وقد فشلنا في إيجاد مثل هذه الدولة . ولن نجني من هذه الثورات إلّا موت شبابنا ، ويُتْم أطفالنا ، وخراب بلادنا ، واضمحلال ثرواتنا !...

• قلت :

ـــ ألم يفطن غيرك من زعماء الثورة إلى ما فطنت أنت إليه ؟؟

أجابني وهو يهز رأسه كأنه يسخر من كلامي :

ـــ ما عساي أقول لك يا بني عن الطبيعة البشرية ؟ إن لبهرجة الزعامة وحب السلطة فعل السحر في نفوس بعض الناس . تجدهم يتعامون عن كل شيء في سبيل تحقيقها لذواتهم يكذبون ويكذبون حتى يصدقوا هم أنفسهم كذبهم هذا إلى حدٍ يؤمنون به !... عندئذٍ يصبح من العسير جداً إقناعهم . ووالله يا بني لو عندي ولو أمل ضئيل في إيقاف هذه الثورة لما توانيت عن السفر إلى داغستان خلسة ، وليس هذا بالأمر العسير علـيَّ ، وهناك كنت أقوم بالدعوة إلى إيقافها ومن ثم نفاوض الروس عسانا نجد حلاً يرضينا ويرضيهم .

ماذا يريد الروس من بلادنا ؟؟.. ليسوا بحاجة إلى مزيد من الأرض ، فبلادهم شاسعة واسعة ، لكنهم يجدون بلادنا ذات الجبال الشاهقة ، والوديان السحيقة تشكل حدوداً طبيعية آمنة بالنسبة لبلادهم . فلو عاهدناهم على حفظ هذه الحدود بالتعاون معهم ضد كل اجتياح أجنبي لقبلوا الصلح ، على شرط ألّا يتدخلوا في شؤوننا الدينية ، ويدعونا نحكم أنفسنا كما نشاء . فإذا نقضوا هذا العهد الذي بيننا وجب علينا عندئذٍ أن نقوم بثورة جامحة ولو فيها هلاكنا جميعاً ، لأن الموت يصبح في مثل هذه الحال أكرم وأشرف من حياة الذل والخنوع هذه .

هيهات أن يستمع أبناء بلادي إلى آرائي ويقتنعوا بها ووراءهم هؤلاء الزعماء وأتباعهم من الشباب الذين يشتعلون حماسة . سيقولون إن الشيخوخة قد جعلت مني إنساناً ضعيفاً ، خرفاً ، خائر العزيمة ، ومن يدري فربما اتهموني بالخيانة أيضاً ... وما كان هذا الاتهام ـــ على فظاعته ـــ ليهمني ، فأنا لا أحجم أبداً عن تقديم نفسي ضحية في سبيل بلادي لو كنت أوقن أن دعوتي

ستنجح ، لقد وجدت صعوبة بالغة في إقناع أولادي فكيف بالغرباء عني ؟؟ ولذا تجدني قد لجأت بعد اليأس إلى الصمت ، وهو أضعف الإيمان ، داعياً ربي أن يهدي أبناء وطني إلى ما فيه خيرهم[1] .

• قال أبي :

ـــ تُرى هل تستوعب يا صغيري ما أحدثك به كله ؟

• فلت :

ـــ لـمَ لا يا أبي ؟ لم أعُـدْ صغيراً ، إنني أستوعب بعض آيات القرآن الكريم فكيف لا أستوعب كلامك هذا ؟

• قال :

ـــ لقد أفحمتني يا بني . أتدري إنك أتعبتني اليوم بكثرة أسئلتك ؟ دعني الآن أقرأ ما يتيسر لي من القرآن . واذهب أنت لتتفرج على الحجاج إن شئت ، أو لتطوف حول البيت ، عسى أن يضفي الله على نفسي القلقة شيئاً من السكينة والهدوء . وربما غفوت قليلاً في مكاني هذا ، فاذهب أنت وستجدني عند صلاة المغرب في المكان الذي اعتدنا أن نصلي فيه .

أخرج جدي ساعته ثم قال :

---

(١) قال جدي : لقد تحققت نبوءة أبي بعد موته بسنوات عام (١٨٥٩) واستسلمت داغستان كلها إلى روسيا ، حين أخفقت ثورة الشيخ شامل وأسره الروس بعد جهاد دام ثلاثاً وثلاثين سنة ، قدمت خلاله بلادنا أروع التضحيات ، ولكنها ذهبت كلها دون جدوى .

ـــ وي ، وي ، لقد انتصف الليل ولم نشعر بالوقت الذي مر سريعاً وأنا مأخوذ بهذا الحديث الذي ذهب بي بعيداً إلى أيام الطفولة ، ومطلع الشباب ، ولم ألاحظ أنكم نعستم ، وربما مللتم أيضاً .

• قالت أمي :

ـــ قلنا كلنا بصوت واحد : لا ، لم نمل أبداً يا جدي ، نتمنى لو أنك تستمر .

• قال :

ـــ ولكنني تعبت من الكلام كما تعب أبي عندما روى لي هذا كله ، أذكر أنه ابتدأ يحدثني منذ انتهينا من صلاة الظهر حتى قبيل صلاة المغرب .

كم أتمنى يا أولادي أن تحفظوا ما أحدثكم به لترووه لأولادكم ، وأحفادكم كما أرويه لكم الآن ليعرفوا سبب هجرة أسرتهم من بلاد القفقاس إلى بلاد الشام .

قوموا الآن إلى فراشكم ، وتصبحون على خير .

* * *

٦

• قالت أمي :

ابتدأ جدي حديثه بسؤال ألقاه علينا قائلاً :

ــ ألم يخطر لواحد منكم أن يسألني كيف أمضيت ليلتي تلك بعد أن عرفت أن أمي طُـلِّقت من أبي ، وتزوجت من رجل آخر ، وهي تعيش الآن في داغستان بعيدة عني هذا البعد الشاسع ، وربما لا يسعدني الحظ برؤيتها قط ، أنا الذي كنت أنتظر مجيئها إلى دمشق بفارغ الصبر ؟

• قالت أمي :

ــ أذكر أنني قلت لجدي ليلتئذٍ :

والله يا جدي لقد خطر لي أن أسألك هذا السؤال ، ولكنني لم أحب أن أقطع حديثك الحلو ، وكنت مسترسلاً فيه ، فأرجأت سؤالي إلى سهرتنا هذه .

● قال لي جدي:

ـــ لقد ألهمني الله أن أسميك يوم ولدت «نجيبة» لأنك حقاً نجيبة يا بنيتي، فلو سألتني الآن هذا السؤال لقلت لك:

ـــ كانت تلك الليلة ليلاء كما يقولون!... لقد بلغ جدك هذا العمر ولا يذكر أنه مرت عليه ليلة أقسى منها. كنت أخشى ألا يتاح لي أن أرى أمي مدى العمر فشعرت كأنني فقدتها إلى الأبد. حين أوى كل واحد منا إلى فراشه بعد أن تعشينا وصلينا العشاء في الحرم، قال أبي وهو يطفئ نور المصباح:

ـــ يجب أن ننام باكراً، لنرتاح ونصحو باكراً، فيومنا غداً حافل، وسنقوم خلال ثلاثة أيام بشعائر الحج كلها.

لم أرد عليه. شعرت بوحشة كبيرة حين غرقت غرفتنا الصغيرة في ظلام دامس، أغمضت عيني وحاولت أن أنام فلم أستطع، كأنني أخذت أستوعب مأساتي أكثر فأكثر، فرحت أبكي بصمت خشية أن يشعر أبي ببكائي فأنا لا أريده أبداً أن يتألم من أجلي، فقد اقتنعت أنه فعل ما فعل حباً بأمي وسعياً وراء سعادتها. مضى عليَّ فترة وأنا أبكي حتى ضاق صدري وشعرت كأنني أختنق فلم أعد أطيق البقاء في فراشي، فتسللت منه وفتحت باب الغرفة بتؤدة كي لا يصحو أبي، وخرجت إلى الزقاق. كان خالياً من الناس، يلفه سكون موحش، وكان في السماء قمر صغير يرسل أشعته الباهتة فتبدد شيئاً من وحشة الزقاق، وعلى نورها الضئيل اهتديت إلى حجر كبير فجلست عليه، وأسندت ظهري إلى الحائط، ورحت أتذكر أمي وأيامي السعيدة بين أحضانها منذ وعيت الدنيا إلى اليوم الذي افترقنا فيه، وأنا وهي

غير مدركين أنه قد يكون فراقاً أبدياً ، ولو أدركنا ذلك لما استطاع أحد أن يفرق بيننا .

راحت تلك الصور الحبيبة إلي تتوالى أمامي كأنني أعيشها في تلك اللحظات ، كنت أراني في حضن أمي وأنا في الثالثة من عمري وهي تروي لي حكاية حلوة وأنا أعبث بضفيرتيها الطويلتين اللتين كانتا تنوسان دائماً على صدرها ، ثم تنهي الحكاية بأغنية مرحة كانت ترددها بصوت خافت شجي كي لا تشوش على أبي الغارق في قراءته ، وتظل تهدهدني حتى أغرق في النوم ، عندئذٍ كانت تضعني في فراشي ، وتنسحب بهدوء إلى غرفة أبي المقابلة لغرفتي ، وتدع الباب مفتوحاً بيننا كي تسمعني إذا استيقظت .

كنت أصحو باكراً فأغادر فراشي ، وأركض إلى غرفة والديَّ ، فأندس بينهما فيفرحان بي ، ويلاعبانني ، ويضاحكانني ، ثم تقوم أمي لتهيئ لنا فطور الصباح وكنت أبقى مع والدي ، وكان قد بدأ يعلمني السور القصيرة من القرآن فكنا نرتلها معاً ، وما أسرع ما كنت أحفظها ، وكان أكثر ما يزعجني هو عندما يزورنا أصدقاء أبي فكان يناديني ، ويطلب مني أن أرتل هذه السور أمامهم ، فكانوا يعجبون أشد العجب من حفظي لهذه السور دون أخطاء على الرغم من صغر سني ، الأمر الذي كان يفرح أبي كثيراً ويفخر به .

ولمّا كبرت قليلاً ولم يعد حضن أمي يتسع لي ، وأنا لا أستطيع أن أنام ما لم أسمع الحكاية والأغنية ، صارت أمي تقعد في فراشي ، فأضع رأسي على ركبتها ألعب بضفيرتيها أفكهما ثم أضفرهما ، وهي تحكي الحكاية ، ثم تغني الأغنية فإذا بدأت أتثاءب راحت تذيب النغم شيئاً فشيئاً حتى أغرق في النوم ، عندئذٍ كانت تضع رأسي على الوسادة بهدوء ثم تنسحب إلى غرفة أبي .

لقد استمر هذا كله إلى يوم فراقنا، فتصوروا ما كان أصعب هذا الفراق !....

بدأ أبي يعلمني الوضوء والصلاة منذ بلغت السادسة من عمري، فلما شارفت السابعة أصبحت صلاتي صحيحة، وبدأ يصطحبني معه إلى الجامع، فإذا فرغت من صلاتي هرعت راجعاً إلى البيت، ومضى أبي إلى مقر عمله. ما كنت أحب أن ألعب في الأزقة مثل غيري من الصبيان، كنت أؤثر أن أظل إلى جانب أمي أتبعها أينما سارت في بيتنا الكبير كأنني ظلها، كنا نغني ونلعب معاً، وأحاول أن أساعدها في عملها قدر استطاعتي.

كنت في جلستي تلك في الزقاق الموحش تحت أشعة القمر الباهتة أناجي أمي !

ـــ لا شك أنك بكيت كثيراً يا أمي عندما بلغك خبر طلاقك من أبي كما أبكي أنا الآن. وقد أدركتِ أن فراقنا قد يطول ويطول، وربما أصبح أبدياً. لمن تحكين الآن الحكايات الحلوة، وتغنين الأغنيات المرحة يا أمي الصغيرة؟

ترى، هل أصبحت أغنياتك حزينة تنتهي بآهات طويلة كالنواح؟

أم أنك نسيت ابنك صالح؟ سنتان كاملتان كافيتان للنسيان، لا لا أنت لم تنسني أبداً يا أمي الحلوة، هكذا قال لي الرجل الذي تزوجك، وأكد لي أنك تتحدثين عني دائماً، وتتسقطين أخباري وتريننى في منامك. لا شك عندي أن أهلك قالوا لك فيما قالوا:

ـــ إن الصبية الجميلة المطلقة لا بد أن يتقول الناس عليها الأقاويل مهما كانت محصنة شريفة، وستسيئين إلى سمعتك وسمعتنا، وسمعة ابنك عندما

يصبح شاباً إذا لم تتزوجي الآن . تأكدي أن المفتي لم يطلقك إلّا حباً بك ، طلقك كما كتب لأبيك من أجل أن تتزوجي قبل أن يفوت أوان زواجك ، تكاثروا عليك وأنتِ وحيدة بينهم ، وأنا بعيد عنك ، اضطررت يا أمي المسكينة أن تذعني لمشيئتهم بالرغم عنك ... لا عليك تأكدي أنني لم أحقد عليك أبداً ، بل أتمنى لك السعادة والهناءة من أعماق قلبي كما يتمناها لك أبي أيضاً . لكن إياك يا أمي الحبيبة إذا رزقت أولاداً أن تحبيهم أكثر من ابنك صالح ، أنا أبنك البكر ، ولن يحبك ابن لك أو ابنة كما أحببتك أنا .

وأستمرُّ في مناجاة أمي ، فإذا طيفها يتراءى لي بين أشعة القمر الباهتة ينبثق من غيمة شفافة ، وإذا أنا أراها بثوبها الأزرق الذي كان يعجبني كثيراً عندما كانت ترتديه . وكانت ضفيرتاها السوداوان الطويلتان تنوسان على صدرها ، وهي تعلو وتهبط كأنها تطير بين السماء والأرض ، كانت تقترب مني ثم تبتعد عني ثم تعود فتقترب أكثر حتى ليخيل إليَّ أنني أستطيع أن ألمسها بيدي فإذا حاولت ذلك راحت تبتعد وتبتعد حتى تتلاشى بين الغيوم .

وأصمت عن مناجاتها مذهولاً ، كان رأسي مرفوعاً نحو السماء ، وعيناي مفتوحتان تحدقان في الفراغ السماوي اللا متناهي وأنا مسمّر في مكاني لا آتي بحركة . فجأة رحت أصحو من ذهولي فأسمي بالله وأقرأ سورة قل أعوذ برب الناس لأطرد الشيطان من ذهني ، خشيت أن يكون قد تمثل لي بصورة أمي ليصيبني بمس من الجنون . ثم قمت وفتحت باب غرفتنا بهدوء . لاحظت أن أبي ما يزال غارقاً في نومه ، اندسست في فراشي أتابع ذكرياتي الحلوة .

تابعت أمي حديثها فقالت لنا :

ـــ صمت جدي فجأة وراح يتأملنا واحداً واحداً ثم قال :

ـــ مالي أرى عيونكم مغرورقة بالدموع ، أنا لا أروي لكم هذه الحكاية لأبكيكم يا صغاري ، بل أرويها لكم لتحفظوها وترووها لأولادكم كما سبق أن قلت لكم . لا تخشوا على جدكم شيئاً ، اطمئنوا لقد اجتمعت بأمي ولكن بعد زمن طويل كما سترون في آخر الحكاية . أما الآن فقد نعسنا ، هيّا بنا لننام ، فقد أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

صحنا بصوت واحد :

ـــ لا لا يا جدي لم ننعس أبداً ، ولا نستطيع أن ننام قبل أن نعرف كيف التقيت بأمك ؟

ـــ ولكنني نعست وتعبت أيضاً .

وينهض وهو يقول :

ـــ بعد ثلاث سهرات أو أربع سأروي لكم كيف التقيت بأمي ، وكم كان اللقاء شيقاً ومؤثراً .

* * *

٧

• قالت أمي :

ـــ ابتدأ جدي حديثه الليلة قائلاً :

ـــ أظن يا أولادي أني أوقفت حديثي البارحة عندما قلت لكم : أويت إلى فراشي لأتابع ذكرياتي الحلوة مع أمي في بلدنا داغستان . كانت أحلى الذكريات التي مرت بخاطري ليلتئذٍ هي ذكرى تلك السهرات الممتعة التي كنا أنا وأمي نسهرها في ليالي الشتاء الطويلة في بيت جدي بين خالاتي وأخوالي ، سقى الله تلك الليالي ! ما كان أمتعها وأحلاها على قلبي ، طالما رأيتها بعد أن غادرت داغستان في منامي واستمتعت بها .

عندما تهطل الثلوج في داغستان أياماً متواصلة وتتراكم فوق بعضها ، وتغمر البيوت حتى منتصفها ، فيصبح من العسير جداً فتح أبوابها للخروج منها ، كان أهالي بلدنا يقبعون في بيوتهم لا يبرحونها إلّا لأمر ضروري جداً وبصعوبة بالغة ، فكانوا يأكلون من المؤن التي يدخرونها لمثل هذه الأيام .

في تلك الليالي الشتوية الطويلة كان يخيم على بيتنا أحياناً جوّ من الكآبة يصعب على أمي تبديده مهما تبذل من جهد . كان أبي يغرق في كتبه لا يرفع رأسه عنها ، وكانت أمي تنسج صامتة شالاً من الصوف ، وأنا ألعب بدمية صنعتها لي أمي من بقايا ثيابها ، وصمت ثقيل يسيطر علينا جميعاً ، أمي تنظر إليَّ مشفقة ثم تغمزني بعينيها مشيرة برأسها إلى أبي فأفهم فوراً مرادها ، فإذا أنا أقوم من مكاني أجلس لصق أبي أتمسح به كقط أليف ، فيربت كتفي بحنان ، عندئذٍ أتجرأ وأقول له :

ــ أتسمح لنا يا أبي أن أذهب أنا وأمي إلى بيت جدي لنسهر عندهم فقد اشتقت إلى خالاتي وأخوالي .

ويهز أبي رأسه موافقاً ثم يقول :

ــ لا تتأخرا كثيراً .

كان من السهل علينا أن نذهب إلى بيت جدي دون أن نخرج من بيتنا إلى الطريق ، لأن زريبتنا كانت تتصل بزريبة بيت جدي بباب صغير قائم في منتصف الجدار الذي يفصل بين الزريبتين ، لأن أكثر الجيران كانوا يوصلون زرائبهم ببعضها إذا كانت بيوتهم متلاصقة لكي يتزاوروا أثناء هطول الثلوج .

سرعان ما تقوم أمي وتضع شالاً على كتفيها ، وتلبسني معطفاً سميكاً ثم تشعل الفانوس وتتناول المفتاح المعلق على جدار المطبخ ، ثم نسير إلى آخر المطبخ ونهبط درجتين إلى فسحة صغيرة فيها باب قصير تفتح أمي الباب فتهجم علينا رائحة كريهة واخزة ، رائحة روث الحيوانات وأنفاسها الحبيسة ، ثم ترفع أمي الفانوس وتغلق الباب وراءها فتدير الحيوانات رؤوسها نحونا ، وتلتمع عيونها

عندما يقع الضوء عليها كأنها شرارات مبعثرة هنا وهناك ، وقد يصهل حصان أبي الأبيض العجوز كأنه يرحب بنا ، ونسمع ثغاء بعض الخرفان والجديان ، ثم يقفز كلب القطيع من آخر الزريبة ، ويأتي إلينا يتمسح بنا ويسير معنا حتى باب زريبة بيت جدي ، ثم تضع أمي المفتاح بالقفل وتديره فينفتح الباب على زريبة أكبر من زريبتنا ، ويعود الكلب أدراجه كأنه يدرك أن حدوده تنتهي هنا .

تغلق أمي الباب وراءنا ونصعد بضع درجات ، ثم تنقر أمي الباب نقرات موزونة ، فيهرع أخوالي الصغار وخالاتي وهم يصرخون وكأنهم يغنون جاءت كُلْ وصالح ، ويفتحون لنا الباب ، ويهجمون علينا يقبلوننا ثم يأخذ أحدهم بيدي ، ونتجه نحو غرفة جدي وجدتي ، أقبل يد جدتي فتقبلني ، ثم أركض - بيث أعرف مكاني في حضن جدي فيعانقني ويضمني إليه ثم يضعني على ركبته اليمنى ، ويأتي خالي الصغير الذي يكبرني ببضعة شهور فقط فيقعد على ركبته اليسرى ، ويرد علينا طرفي عباءته الصوفية فنشعر بالدفء يسري فينا .

بعد لحظات قليلة يقوم أخوالي وخالاتي الصغار ويذهبون إلى غرفة أخرى فنلحق بهم أنا وخالي الصغير ، وتبقى أمي وخالي الكبير مع جدي وجدتي .

هناك كنَّا نلعب ، نرقص ، نغني ، أحد أخوالي ينفخ في المزمار نغمات شجية ، والآخر يضرب على طبل صغير ضربات موزونة ، تدفعنا إلى الرقص ، ونظل نرقص حتى يسيل منا العرق على الرغم من البرد الشديد ، ثم تأتي أمي تنادينا قائلة :

ـــ تعالوا كفاكم لعباً وضجيجاً ألم تتعبوا ؟

كنا نتبعها فوراً دون أي اعتراض لأننا نعرف ما كان ينتظرنا ، ندخل الغرفة فنجد جدتي قد وضعت في حجرها صينية صغيرة فيها أكوام من التين

المجفف ، والزبيب واللوز والجوز ، فتقبض من كل كوم قبضة وتضعها في جيب كل واحد منا ، ثم نجلس حول الموقد نقضم بتلذذ حصتنا حتى آخرها ، وأحياناً كانت جدتي تطبخ لنا في السهرة الحلاوة الطحينية وتزينها باللوز المحمص .

كان جدي يبدو دائماً مرحاً ، يحكي لنا الحكايات المسلية ، ويروي لنا النكات المضحكة ويلاعبنا ، يشد ضفيرة هذه ، ويقرص أذن ذاك ، ويوهمه أن جاره هو الذي قرصه لتقوم بين الاثنين مشادة يضحك هو لها كثيراً . بعد فترة ينظر إلى أمي ويقول لها :

— قومي يا بنتي واذهبي إلى بيتك ، ربما كان زوجك بحاجة إلى شيء . فتقوم أمي فوراً . تأخذ بيدي ، وتضع الشال على كتفيها ، وتودع أبويها ، وإخوتها ، وتحمل الفانوس ، ونعود من حيث أتينا .

شيء آخر كان يسليني كثيراً عندما كان يأتي راعي قطيعنا صباح كل يوم . يفتح باب الزريبة الخارجي ، بعد أن يزيل الثلج من أمامه بجاروف كبير ، ثم يخرج الحيوانات من الزريبة بعد أن يشق لها طريقاً بين الثلوج ، ويدع الباب مفتوحاً ليتغير الهواء ، ثم يكنس الزريبة ، ويعيد الحيوانات ويضع لها العلف والماء . وأنا أتفرج عليه وألعب مع الحيوانات ، فإذا انتهت من طعامها وشرابها ساق الإناث وحصرها في جانب وراح يحلبها بسرعة وبراعة . كم حاولت أن أقلده فلم أفلح . فإذا امتلأ الإناء بالحليب حمله إلى أمي لتفرغه وتعيده إليه . كان الحليب في الشتاء شحيحاً يكاد لا يملأ الإناء الواحد ، وكنا نشربه مع فطور الصباح محلًّى بالسكر أو العسل . أما في الربيع فكان يفيض الحليب حتى يملأ أكثر أواني المطبخ ، وكان يشغل أمي طول نهارها ، فكانت تصنع منه الجبن ، واللبن المصفى ، والسمن ، كانت تضع الحليب في زقٍ مخصص لذلك

ثم تحكم سده ، ثم تجلس وتبدأ بخض الزق ، وتظل تخضه ساعات طويلة ، ثم تفرغه فإذا السمن قد تجمع كتلاً جامدة كانت تضعها في أوعيتها المخصصة لها وتحفظها لمؤونة الشتاء .

سرت بخاطري أيضاً وأنا قابع في فراشي ذكرى مقبضة كانت قد تركت في نفسي أثراً لا يمحى مهما بعد بها العهد . هي ذكرى أم أيّوب وابنها أيّوب .

كان أبي قد استجاب بعد إلحاح طويل إلى دعوة سكان إحدى القرى الجبلية ليمضي في قريتهم بضعة شهور يفقههم في دينهم ، ويعلمهم قراءة القرآن ، ومبادئ اللغة العربية قراءة وكتابة . فرحلنا إلى تلك القرية ، وكان أهلها قد أعدوا لنا بيتاً جميلاً ، وراحوا يبذلون جهدهم في إكرامنا ، وتوفير الراحة لنا كما هو شأن الداغستانيين في إكرام ضيوفهم .

لقد استمتعت كثيراً بهذه الفترة من حياتي كانت تلك القرية جميلة جداً . تنتشر بيوتها على جبل شامخ تبدأ البيوت من سفحه حتى قمته . وسرعان ما تعرفت على صبيان القرية لأنهم كانوا يسارعون إلى التعرف إليَّ وإكرامي لأنني ضيف قريتهم ، وابن المفتي الذي أصبح أستاذهم . فإذا انتهت حصص الدرس رحنا نلعب معاً ، فنصعد الجبل إلى آخر بيت فيه ثم نتسابق بالنزول ركضاً إلى السفح تدفعنا شدة انحدار الجبل بسرعة فائقة في الركض ، وكانت هذه اللعبة تروق لي كثيراً . فإذا آذنت الشمس بالمغيب وقفنا على مشارف الجبل ننتظر عودة أيّوب .

كان أيّوب هذا فارساً مغواراً ، وصياداً ماهراً جميل الطلعة ، فارع الطول ، يمتطي صهوة جواده المطهم الأصيل فيبدو لنا نحن صبيان القرية كأنه أمير من أمراء الأساطير . كان كل واحد منا يتمنى أن يصبح ذات يوم مثل

أيّوب هذا بطلاً مرموقاً، فكنا نقلد مشيته المتغطرسة، ونركب أي شيء لنقلده أيضاً. كيف كان يمتطي جواده فيبدو لنا وكأنه والجواد قطعة واحدة.

كان الصيد هواية أيّوب المفضلة، وكان يخرج كل يوم راكباً جواده، ويجوب الجبال والوديان، يصطاد الأرانب والغزلان والطيور. وكان ذا مروءة ونخوة، ما قصده أحد في حاجة إلّا لبّى طلبه. كريماً متلافاً، يأخذ مما يصطاد ما يكفيه وأمه ثم يوزّع ما تبقى لديه على الأهل والجيران والأصدقاء، وكثيراً ما كان ينوبنا شيء من فيض عطائه وكرمه. فأحبه كل من عرفه.

ذات مرة، وفي أثناء شتاء قارس فاجأته عند أوبته من الصيد عاصفة هوجاء مع ثلوج كثيرة، جاءت معاكسة لخط سيره، فراح يكافح كفاح المستميت حتى استطاع أن يصل إلى قرب بيته فيقرع ببندقيته باب أحد جيرانه فيهرع هذا مع آخرين إلى نجدته، وراحوا يعملون جاهدين حتى أزالوا الثلوج وأدخلوه بيته وهو في إعياء شديد. وتهرع أمه تدثره بأغطية صوفية، وتوقد الموقدة والمنقل، فراح في سبات عميق لم يستيقظ منه حتى صبيحة اليوم الثاني على حرارة شديدة، وسعال جاف. ويتوافد الجيران إلى بيت أم أيّوب غير عابئين بالعواصف والثلوج المتراكمة، فالجيران يا أولادي يعيشون في بلدنا داغستان كأنهم أسرة واحدة. كان كل واحد من الجيران يحمل معه شيئاً إلى أيّوب، وصفة دواء، أو دواءً، أو شيئاً من الطعام، أو لباساً صوفياً يصلح لمريض مثله، وعلى الرغم من هذا الاعتناء كله كانت صحة أيّوب في تدهور مستمر، في صبيحة اليوم الرابع مات أيّوب! وهو في ريعان شبابه.. فترك لوعة في قلب كل من عرفه. صعدت روحه إلى بارئها في يوم بدت فيه الطبيعة غاضبة أشد الغضب، الثلوج تهطل بغزارة دون أن تتوقف لحظة واحدة، والرياح تزمجر من كل صوب، كأنها تولول وتنوح على أيّوب.

في تلك العواصف الهوجاء لا يمكن دفن الموتى . كانت العادة في تلك القرية الجبلية هي أن يغسل الميت ويكفن ثم يحمل ويوضع على السطح تحت الثلوج ، ويظل هناك حتى تهدأ العاصفة وينقطع هطول الثلوج ، عندئذٍ يؤخذ إلى المقبرة ويوارى في مثواه الأخير . ويتطوع بعض الجيران فيغسلون أيّوب ويكفنونه ثم يحملونه إلى سطح الدار ويضعونه هناك ثم ينصرفون إلى بيوتهم مودعين أم أيّوب بكثير من اللوعة والحزن . وتبقى ثلاث نسوة من الجيران القريبين مع أم أيّوب الثكلى التي فقدت وحيدها يبكين معها ، وتارة يواسينها ، ويخففن من حزنها .

في منتصف تلك الليلة بالذات يلمح شاب من الجيران مصادفة ضوءاً على سطح أم أيّوب يتحول أحياناً من طرف إلى آخر مما يثبت أن هناك إنساناً يحركه ، ويوقظ الشاب أباه وأخويه ، ويريهم ما رأى فيتملكهم العجب مما يرون ، ويتساءلون ما خطب هذا الضوء على سطح أم أيّوب ؟ وكيف يستطيع إنسان أن يبقى على السطح في مثل هذه الساعة من الليل وفي مثل هذه العواصف ؟

ويقول الأب بحزم :

ــ لا بد لنا يا أولادي أن نذهب إلى دار أم أيّوب مهما تحملنا من مشاق لنرى ما قصة هذا الضوء؟ فللجار حق على جاره في الضرّاء قبل السرّاء .

ويبذل الأب وأولاده جهدهم حتى يصلوا إلى دار أم أيّوب القائمة على سفح الجبل غير بعيدة من دارهم .

● قال جدي :

ـــ ألم أقل لكم يا أولادي أن الجيران في بلدنا داغستان مثل الأهل تماماً.

ويقرع الأب وأولاده باب أم أيّوب ولا من مجيب .. عندئذٍ صعدوا الجبل حتى أصبحوا على مستوى السطح ويقفز أحدهم إلى السطح فيجد أم أيّوب جالسة أمام جثة ابنها متدثرة بشال صوفي ومعها عصا ثخينة، وأمامها فانوس تزيل عنها الثلج كلما تراكم عليه. سألها الشاب:

ـــ ماذا تفعلين هنا على السطح يا أم أيّوب في منتصف الليل، وفي هذه العواصف ؟؟

أجابت وهي تنشج بالبكاء:

ـــ لقد غافلت النسوة اللواتي عندي عندما أيقنت أنهن في سبات عميق وجئت إلى هنا لأحرس جثة أيّوب !!

فنادى الشاب أباه وأخويه فصعدوا إلى السطح. فقال لهما ما سمع من أم أيّوب.

• قال لها الأب:

ـــ اتقي الله وارضي بحكمه يا أم أيّوب، وهل جثة أيّوب بحاجة إلى حراسة ؟

• قالت وهي تمسح دموعها:

ـــ سمعت ذات مرة أن صبية ماتت في أثناء العواصف فوضعها أهلها على السطح ريثما تهدأ العواصف ليدفنوها، وكان السطح مثل سطح بيتي موازياً

للجبل فلما هدأت العاصفة لم يجدوا منها إلّا هيكلها العظمي وضفيرتيها الطويلتين لأن الذئاب أكلتها وأنا أخشى أن تأتي الذئاب في أثناء الليل وتأكل جثة أيّوب. وانفجرت باكية بلوعة الأمهات الثكالى.

وبذل الأب وأولاده جهداً كبيراً حتى استطاعوا أن يقنعوا أم أيّوب بالرجوع إلى دارها بعد أن وعدوها أن يتناوب الشباب حراسة الجثة حتى الصباح.

وفي اليوم الثاني استنجد الأب بالجيران فتضافروا جميعاً وبذلوا جهوداً جبّارة من أجل الأم الثكلى، وحفروا لأيّوب قبراً في سفح الجبل قريباً من بيته ووارووه فيه على الرغم من الثلوج والعواصف. وكنا نحن صبيان القرية نتعهد قبر أيّوب فنزينه كل يوم بالأزهار والأغصان الخضر ونقرأ أمام القبر سوراً من القرآن نهبها لروح أيّوب الطاهرة.

وما أزال أذكر أغنية كنت أبكي كلما سمعت الصبايا والشباب يرددونها في المناسبات تصف فاجعة أم أيّوب. وتسأل الله أن يفرغ صبر أيّوب على أم أيّوب الثكلى.

• قالت أمي:

ـــ ويقف جدي فجأة ويقول:

ـــ حسبنا اليوم يا أولادي، لأن سهرة الغد ستكون طويلة وممتعة.

فقمنا إلى فراشنا، ونحن في أشد الشوق إلى السهرة القادمة.

* * *

٨

• قالت أمي ابتدأ جدي حديثه هذه الليلة قائلاً :

ـــ ظلّت تلك الذكريات التي حدثتكم عنها البارحة تتوالى على ذهني حتى شعرت بإعياء شديد . يبدو أن التعب والأرق قد أرهقاني فاغتالتني غفوة امتدت ساعة أو تزيد قليلاً فإذا أبي يوقظني قائلاً وهو يهزني من كتفي :

ـــ يا صالح ، يا صالح قم يا بني ما عهدت نومك ثقيلاً إلى هذا الحد ، أنسيت أننا سنذهب إلى « منى » ومنها إلى « عرفات » قم يا بني توضأ ، لقد توضأت أنا ، وتركت لك في الجردل ماءً فاتراً .

وبعد أن توضأت سرنا إلى الحرم الشريف وصلينا فيه صلاة الفجر ثم نوينا الإحرام ثم طفنا حول الكعبة .

كان أبي قد اتفق مع رجل من أهل مكة ليتولى شؤوننا فوجدناه ينتظرنا عند مقام إبراهيم ، فسلم الرجل علينا وكان محرماً مثلنا ، ثم خرجنا من الحرم ، سار الرجل أمامنا وراح يدعو بصوت مسموع أدعية منتقاة فيها التضرع إلى

الله تعالى ليغفر لنا ما تقدم وتأخر من ذنوبنا، كنا نتبعه ونردد ما يقول حتى وصلنا إلى «منى» دون أن نشعر بالتعب رغم المسافة الطويلة.

أمضينا يومنا وليلتنا في «منى» وكنا لا نكف عن الصلاة والدعاء، بعد شروق الشمس اتجهنا إلى جبل «عرفات». قادنا الرجل الذي كان يتولى شؤوننا بين هذه الجموع الغفيرة إلى خيمة كان قد استأجرها لنا، وجهَّزها بكل ما نحتاج إليه من طعام وشراب. استرحنا قليلاً ثم قمنا نصلي بضع ركعات تقرباً إلى الله تعالى. ثم أكلنا ما تيسر مما حمله لنا الرجل. فلما حان موعد الزوال خرجنا مع الجموع الغفيرة للصلاة خلف أمير الحج. استمعنا أولاً إلى خطبة بليغة عن فضائل الحج وشعائره، ثم جمعنا صلاتي الظهر والعصر، ولما انتهينا منهما بدأت وقفة عرفات.

لن أنسى مدى عمري الخشوع الذي تملكني وأنا أرى مئات الألوف من الناس في ملابس الإحرام شبه عراة مكشوفي الرؤوس، لا فرق بين غني وفقير، كبير وصغير، صعلوك وأمير، متجهين إلى الله سبحانه وتعالى مخلصين له الدين، مهللين، مكبرين، ملبّين، يسمع لأصواتهم دوي مهيب. قال أبي:

ـــ إن الله يا بني يستجيب في هذا اليوم الفضيل لدعاء عباده الصالحين. فادع ربك بما شئت يستجب لدعائك.

كنت مأخوذاً بما أرى وأسمع إلى حد نسيت فيه ذاتي، نسيت مأساتي، شعرت أن روحي قد انفصلت عن جسدي وحلقت بعيداً كأنها قد اتصلت بالملأ الأعلى، إنني الآن واقف حقاً بين يدي ربي... لم يعد يجري على لساني إلّا قولي:

ـــ لبيك اللهم لبيك... لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. كنت أقولها بصوت متهدج رافعاً رأسي نحو السماء، ومادّاً يديَّ إلى أعلى.

أليس من الأدب ألّا أطلب من ربي شيئاً مستغلاً فضيلة هذا اليوم العظيم؟...

أليس هو العليم الخبير العارف ما في الصدور..؟

لقد تركت له أمري ليُقـدِّر عليَّ ما يشاء، وأنا راضٍ بقدره الرضا كله..

كم كان أبي حكيماً عندما جاء بي إلى الحج ليخبرني بطلاق أمي. أتراني كنت أتقبله وأرضى به لو لم أكن في الحج، كما أرضى به الآن؟؟

أشعر الآن أنني قريب من رب العالمين، وشعوري هذا هوَّن عليَّ الأمر إلى حد بعيد.

بقيت هذه الجموع الغفيرة في «عرفات» تهلل وتكبر، وتلبي وتدعو الله كل بما تيسر له من الأدعية حتى آذنت الشمس بالغروب، عندئذٍ بدأت الإفاضة من «عرفات» والتوجه نحو «المزدلفة». كان لا بد من الازدحام والفوضى. قال لي أبي:

ـــ أمسك بيدي يا بني كي لا تضيع مني.

أمسكت بيد أبي وسرنا خلف الرجل الذي كان يتولى شؤوننا، وعاد يدعو الأدعية المناسبة وعدنا إلى ترديد ما يقول:

كان أبي قد احتاط لكل شيء، ربما لأنه سبق له أن حج أيام شبابه. أخرج من عبّه كيسين صغيرين من قماش وقال لي:

ـــ خذ هذين الكيسين أحدهما لك والآخر لي، واجمع فيهما حُصيَّات من أجل رمي الجمرات الثلاث، لكل جمرة سبع حُصيَّات، واجتهد أن تكون الحصاة بحجم البندقة، ولا بأس إذا جاءت أكبر أو أصغر قليلاً لنرجم بها الشيطان في ثلاثة أمكنة من «منى» لا تبعد عن بعضها إلّا قليلاً. قلت:

ـــ أوسنرى الشيطان يا أبي لنرجمه؟

تحوَّل أبي وقال:

ـــ ما كنت أتوقع منك هذا السؤال يا صالح! عهدي بك أذكى من أن تسأله.

• قلت مبرراً سؤالي:

ـــ أردت يا أبي أن أستوضح الأمر فقط، ثم أفهم الغاية منه.

• قال أبي وهو ينظر إليَّ نظرة إشفاق وإعجاب:

ـــ حسب اجتهادي أنا يا بني أرى أن للرجم معنى رمزياً، هو طرد الشيطان الكامن في نفوسنا ينتظر لحظة ضعف منا ليغوينا، وهذا الإلحاح والتكرار على الرجم ما هو إلّا تحصين لنفوسنا من الشيطان عدو الإنسان الأزلي كي لا نجعل له سبيلاً إلى غوايتنا. هل فهمت الآن الغاية من رجم الشيطان؟

• قلت:

ـــ لقد فهمت. قال أبي مربتاً على كتفي:

ـــ اذهب إذن واجمع الحُصيَّات.

جمعت الحُصيَّات بصعوبة بالغة، لأن الناس كانوا كلهم منحنين على الأرض يجمعون الحصى، فلا بد من الازدحام والفوضى، ثم صلينا المغرب والعشاء معاً في جامع هناك، وبتنا ليلتنا تلك في «المزدلفة». وبعد صلاة الفجر اتجهنا إلى «منى». هناك رمينا الجمار، أي رجمنا الشيطان ثلاث مرات، وبعد ذلك ذهبنا مع الرجل إلى مكان ليس ببعيد، اشترينا منه كبشين، نحرا أمامنا ثم تركناهما على الأرض للفقراء والمساكين. وبذلك نكون قد أتممنا شعائر الحج كلها.

حلق أبي شعر رأسه كله، ثم قص لي خصلة من ناصيتي ثم اتجهنا إلى مكان خلو من الناس فخلعنا ألبسة الإحرام، وارتدينا ألبستنا العادية، ثم تطيَّبنا كما فعل رسول الله ﷺ عندما خلع ألبسة الإحرام، ثم اتجهنا إلى مكة نسير الهوينا كي لا نرهق أبي الذي بدا متعباً. دخلنا الحرم الشريف وجلسنا قرب أحد جدرانه نستريح قليلاً، فإذا خف الازدحام حول الكعبة رحنا نطوف سبعة أشواط طواف الإفاضة، وهو من شعائر الحج أيضاً، بعد ذلك ذهبنا إلى غرفتنا لنأخذ قسطاً من الراحة بعد هذا الجهد الكبير الذي بذلناه خلال ثلاثة أيام، ولا شك أن تأثيره على أبي الشيخ كان أبلغ من تأثيره عليَّ، ولكن أبي كان صبوراً، لا يشكو ولا يتذمر مهما مر عليه من الصعاب.

وإذا مناد يطوف حول الحرم وينادي بصوت جهوري حتى يبلغ غرفتنا:

ـــ إن الحج الشامي سيجتمع غداً قريباً من الحرم بعد صلاة الفجر

وطواف الوداع ليتوجه إلى بلاد الشام وليعلم الحاضر الغائب، وراح يكررها مرات ومرات.

مكثنا في غرفتنا نستريح بضع ساعات، ثم قال لي أبي:

— قم يا صالح لنغتسل ونتوضأ، ثم نخرج إلى السوق نشتري شيئاً نطعمه، وبعض الهدايا، ثم نذهب إلى الحرم نصلي ونقرأ شيئاً من القرآن، ونشكر الله سبحانه الذي منَّ علينا بزيارة بيته العتيق.

اشترينا أقمشة حريرية لنساء الأسرة، وسبحات للرجال، وكمية وافرة من التمور والبخور، وماء زمزم في قناني مختومة.

بقينا في الحرم حتى صلاة العشاء، ثم اشترينا شيئاً نأكله، ثم عدنا إلى غرفتنا.

اقترح أبي أن نجمع قبل أن ننام حوائجنا في الأكياس المعدة لها، حتى إذا صحونا عند صلاة الفجر لا نجد ما يعوقنا لنذهب إلى الحرم نصلي، ونطوف طواف الوداع.

لم أرَ الحرم مزدحماً كما رأيته فجر ذلك اليوم. كان يموج بالناس كالبحر المتلاطم الموج، فقد جاء أكثر الحجاج يطوفون طواف الوداع.

كنت ألاحظ الرضا والطمأنينة على وجوه الحجاج بعد أن أدوا فريضة الحج وشعائره كلها، ففيهم من جاء من بلاد بعيدة، بعيدة، آملين أن يغفر الله لهم ما تقدم وتأخر من ذنوبهم بعد أن بذلوا هذا الجهد المرهق راضين به الرضا كله، مطمئنين كل الإطمئنان، واثقين كل الثقة من غفران الله وعفوه، ورأفته بعباده التائبين، المخلصين له الدين.

طفنا بصعوبة بالغة، وجهد كبير من شدة الازدحام، ثم خرجنا من الحرم الشريف، وقد وجدتني أشمل هذا المكان المقدس البالغ الروعة بنظرة وداع خاشعة، داعياً ربي أن ييسر لي زيارته مرة ثانية مع أمي الحبيبة، وتجول في عيني دموع تنحدر ساخنة على وجنتي. أخذنا الطريق إلى غرفتنا في الزقاق الضيق غير بعيد عن الحرم.

أمام باب الغرفة وجدنا صاحبها مع العكَّام الذي جاء بنا من دمشق واستأجرها لنا.

حيّا أبي الرجلين بحرارة وودٍ. وإذا العكَّام يربت على كتفي قائلاً:

ـــ كيف حالك يا حاجنا الصغير؟ حج مبروك، ومقبول إن شاء الله.

ابتسمت له معتزاً بلقب حاج أسمعه لأول مرة، وأشعر أنه يضفي عليَّ مهابة وقاراً.

سلّم أبي مفتاح الغرفة لصاحبها، ثم أخرج كيس نقوده ودفع له الأجرة مع زيادة مرموقة تعبيراً عن رضاه عن الغرفة، فشكره الرجل على كرمه. ثم يدخل العكَّام الغرفة ويحمل أمتعتنا ويسير أمامنا، فرحنا نتبعه مسافة غير بعيدة، وإذا نحن في ساحة كبيرة اجتمع فيها الحجيج الشامي كله.

قادنا العكَّام إلى أمام محارتنا المثبّتة على ظهر جمل ضخم، بارك على الأرض يجتر طعامه غير مبال بما يجري حوله. جاء العكَّام بكرسي صغير وضعه قرب المحارة، جلس عليه أبي ثم أخرج سبحته وراح يسبّح، وأقف بالقرب منه أنظر إلى جموع الحجاج القادمة من كل صوب بشيء من الملل، وما هي إلّا ساعة أو تزيد قليلاً حتى اجتمع الشمل كله، وإذا المنادي يعلن قيام الحج

الشامي ، فتقرع الطبول ، وينهض الناس مرة واحدة يمتطون جمالهم وخيولهم ، ويحمل المشاة أمتعتهم ، وراحوا يكبّرون ويهللون .

ركبنا نحن محارتنا ، وقد رتب العكّام أمتعتنا ، جعل أكثرها في جانبي ، وجلس أبي في الجانب المقابل كي يتوازن الثقلان ، فلا تميل ذات اليمين أو ذات الشمال .

ويسير الحجيج وراء أمير الحج الذي كان جالساً في تختروانه يحف به حراسه ممتطين الخيول المطهمة ، وفي المقدمة يبدو السنجق ، علم الحج الأخضر المذهب .

كانت الشمس قد بدأت تنحدر عن جبال مكة ووديانها ، وتهب نسائم عليلة من كل جانب فالطقس معتدل ، وكان هذا من حسن حظنا لأن موسم الحج جاء هذا العام في أواسط الشتاء فلم نشعر بقيظ مكة وهوائها اللافح السموم .

منذ ذلك اليوم حمل جدكم يا أولادي لقب حاج إلى يومنا هذا . قالت أمي :

ـــ نهض جدي واقفاً وهو يقول : تصبحون على خير وإلى سهرة الغد إن شاء الله .

* * *

٩

• قالت أمي :

ـــ ابتدأ جدي حديثه ليلتئذ قائلاً :

ـــ كان هناك يا أولادي بالنسبة إليَّ فارق كبير بين رحلة الذهاب ورحلة الإياب .

في الذهاب كنت أشعر أنني سعيد إلى أبعد حدود السعادة ، ما عرفت الملل أو الضيق رغم طول الرحلة ومشاقها ، فإذا حان موعد الطعام أكلت بشهية أكثر من عادتي ، وإذا حان موعد النوم نمت ملء جفوني . كان يخيل إليّ وأنا في تلك المحارة الصغيرة التي لا أستطيع أن أتحرك فيها إلّا بصعوبة بالغة كأنني في أرجوحة تهتز بي إلى الأمام وإلى الوراء حسب سير الجمل الذي يحملها ، فتساعدني على نوم هانئ ، أظل غارقاً فيه حتى يوقظني أبي لصلاة الفجر ، كنت أنهض نشطاً فرحاً وكان الحجيج يقف كله لأداء الصلاة ، فأقفز من المحارة بمساعدة العكَّام ثم ينزل أبي فنتوضأ ونصلي جماعات

جماعات، ثم أروح أتجول بين الحجاج، كل شيء كان يثير عجبي واهتمامي، ولا أعود إلى أبي حتى يحين موعد قيام الحجيج فأصعد إلى المحارة وآخذ مكاني فيها ثم أحدث أبي. أصف له ما رأيت، وما سمعت من مُلح فيضحك لنكاتي وتعليقاتي، ويفرح لفرحي.

أما رحلة الإياب فكانت على العكس تماماً، كنت أشعر وأنا في المحارة كأنني في سجن، وقد أصبحت أمام مأساتي وجهاً لوجه، لا شيء يصرفني عن التفكير بأمي أتساءل هل هي سعيدة بزواجها؟ أم تعيسة لفراقي؟ كنت أجدني زاهداً بكل شيء، مكسور الخاطر، مشغول البال، لا أستطيع أن أتناسى هذا الواقع المر، وقد استبد بي الشوق إلى أمي كما لم يستبد بي أبداً، ربما لأن في أعماقي شعوراً يوحي إليَّ أنني سوف لا أراها ما حييت!...

من أجل هذا كله كانت الليالي طويلة، وثقيلة، يجافيني فيها النوم وما أصعب الأرق في هذه المحارة الضيقة الكئيبة.

أحياناً في الليالي المقمرة كنت أزيح ستارة الطاقة التي في جانبي وأنظر إلى الفضاء الواسع، وهذه الصحراء الموحشة، المترامية الأطراف عساي أرى طيف أمي كما رأيته في مكة، في الزقاق الضيق مستنداً إلى جدار غرفتنا، لعل رؤية الطيف تخفف شيئاً من شوقي وحنيني إليها، ولكن الطيف لا يظهر، ويرتد بصري عن الفضاء الواسع وهو حسير، ويحوطني اليأس من كل جانب.

وما كان ليخفى عن أبي ما أعاني، فكان يحاول جاهداً أن يرفّه عني فيحكي لي سير الأنبياء وما مر عليهم من محن كانوا يتقبلونها راضين، صابرين على البلوى التي ابتلاهم بها الله سبحانه امتحاناً لهم على إيمانهم بالله تعالى، وصبرهم على حكمه عساي أتخذهم أسوة لي.

كان يخطر لي أن أقول لأبي :

ـــ لا تتعب نفسك يا أبي فابنك ليس نبياً ...

أحياناً كنت أشرد عن حديثه وأعود إلى حديث نفسي ، وأظل أهز له رأسي ليحسب أنني أستوعب ما يقوله لي . ولكن سرعان ما يكتشف أنني لست معه فيقول :

ـــ حسبي الله ونعم الوكيل ، لا أدري ماذا أستطيع أن أفعل لك .

ثم يمد يده ويناولني المصحف الذي كان لا يفارق حجره قائلاً :

ـــ خذ اقرأ ما يتيسر لك فلا شيء ككلام الله يضفي السكينة والطمأنينة على النفس القلقة الحزينة .

فأتناول المصحف منه وأقرأ فيه بعض السور ، فأشعر حقاً بشيء من الراحة والهدوء ... وأظل أقرأ حتى يحين موعد الصلاة أو الطعام .

هكذا كان حالي في رحلة الإياب ، وقد بدت لي طويلة ، طويلة ، شاقة ، مملة ، كل يوم منها يعدل دهراً .

بدأ يهزل جسمي لأنني ما كنت آكل إلّا قليلاً ولا أنام إلا لماما ، وكيف أنام وهذا الهم جاثم على صدري لا يتزحزح عنه ؟...

بعد مشقة بالغة ، وصبر طويل وصلنا إلى مشارف الشام .

• قال لي أبي برفق ، كأنه يتوسل إليَّ :

ـــ اسمع يا بني يا صالح ، غداً سنصل إلى دمشق ، وسيخرج أهلنا

وربما بعض أصدقائنا ومعارفنا لاستقبالنا في محلة « العسالي » ويعز عليَّ أن يروك حزيناً كئيباً ، هزيلاً كأنك مريض ، آمل أن تفعل ما أطلبه منك .

• قلت :

ـــ أنا طوع أمرك يا أبي .

• قال وهو يربِّت على كتفي :

ـــ الله يرضى عنك ، في الاستراحة القادمة اغسل وجهك وشعرك وسيساعدك العكَّام على ذلك ، وحسِّن هندامك ما استطعت ، فالبس خير ما عندك ، وتطيَّب فإذا رأيت الذي سيجيئون لاستقبالنا ابتسم لهم ، وامح هذه الكآبة عن محياك الجميل لتبدو فرحاً سعيداً بهذا الحج الذي منَّ الله به علينا .

• قلت :

ـــ ليطمئن بالك يا أبي سأسعى لأكون كما تريدني أن أكون .

في اليوم الثاني وصلنا ضاحية « العسالي » قبل صلاة الظهر . كان في استقبالنا كما توقع أبي : أخواي ، وبعض أصدقائنا ، ومعارفنا استقبلونا بحرارة وودٍ وكانوا يرددون :

ـــ جعله الله حجاً مقبولاً مبروراً .

ركبنا العربات وأخذنا طريقنا إلى حي باب البريد حيث بيتنا على مقربة من الجامع الأموي .

وجدنا أيضاً بعض جيراننا من أهل حينا ينتظروننا أمام باب بيتنا ،

فسلموا علينا مهنئين مباركين لنا بالحج. وإذا أخي الكبير يدعوهم جميعاً إلى بيتنا ليتناولوا معنا القهوة والمرطبات.

تركتهم وهرعت إلى الجوَّاني لأسلم على بقية أفراد الأسرة.

تلقتني زوجة أخي الكبير بكثير من اللهفة، فضمتني إلى صدرها وراحت تقبلني، وألمح الدموع في عينيها فأعرف أنها على علم بطلاق أمي فرحت أجهش بالبكاء، وهي تبكي معي وتهدهدني، وتقول لي بصوت متهدج ولهجة صادقة حنون:

ـــ لا عليك يا بني سأكون أنا أمك الثانية، فأنت في عمر أولادي، ولا فرق عندي بينك وبين أي واحد منهم. توكل على الله يا حجي لا بد أن نعود إلى بلادنا، وستعود أنت إلى أحضان أمك.

• قلت بلهجة حزينة:

ـــ أتدرين أن أمي قد تزوجت، وربما نسيتني.

قالت وهي تمسح على رأسي، وتبتسم من خلال دموعها:

ـــ لا، لا يا بني الأم لا تنسى ابنها أبداً، وماذا يهم إذا تزوجت ما دامت بصحة وعافية، وحين نعود إلى داغستان إن شاء الله ستزورها متى شئت، فما من أحد يستطيع أن يفرِّق بين الأم وابنها.

شعرت بشيء من العزاء وأنا أستمع إلى كلامها الذي ينم عن عاطفة صادقة كل الصدق، كنت في أمس الحاجة إلى من يشعر معي لأفضي إليه بما يساورني من هموم، مسحت دموعي وسلمت على زوجة أخي الصغير وعلى

أبناء وبنات أخويَّ، ولاحظت أنهم كانوا يبكون أيضاً وهم يستمعون إلى حوارنا.

وإذا أخي الصغير يناديني قائلاً:

ـــ تعال يا حاج صالح فقد جاء أصحابك ليسلموا عليك. هرعت إلى البرَّاني فإذا أصدقائي، وبعض زملائي في المدرسة جاؤوا أيضاً للسلام عليَّ، جلست معهم في ناحية من باحة الدار، وانهالت عليّ الأسئلة من كل جانب وأنا أجيب عليها، وأحدثهم عن شعوري عندما دخلت الحرمين الشريفين، وأصف لهما روعتهما.

لقد خيِّل إلي أنهم ينظرون إلي نظرة إكبار وإعجاب مما جعلني أشعر بشيء من التيه والاعتزاز. ثم يردف قائلاً:

ـــ لا تستغربوا ذلك يا أولادي ولا تلوموني عليه فليس من طبعي أن أتيه على أحد مهما رُزقت من نعم، ولكنه كان أمراً طبيعياً بالنسبة لصبي في مثل عمري راح يحمل لقب حاج، وهو لقب يتوق إليه كثير من الكبار الذين لم تُتَح لهم تأدية فريضة الحج. ظللنا ثلاثة أيام نستقبل الزوار فما أكثر أصدقاء أبي من أئمة المساجد والمشايخ وطلاب العلم.

في صباح اليوم الرابع من مجيئنا قلت لأبي ونحن نتناول طعام الإفطار:

ـــ أتسمح لي يا أبي أن أذهب اليوم إلى مدرستي؟

• قال أبي:

ـــ طبعاً لقد آن لك أن تذهب إليها فقد فاتك كثير من الدروس.

• قال أخي الكبير موجهاً كلامه إلى أبي :

ـــ أحب يا أبي أن أعرض عليك رأياً فيما يخص أخي صالح .

• قال أبي :

ـــ هات ما عندك يا ولدي .

• قال أخي :

ـــ لا أرى أن هذه المدرسة ستفيد صالح بعد اليوم أكثر مما أفادته ، فقد أصبح يجيد اللغة العربية كتابة وقراءة إجادة لا يحتاج إلى أكثر منها ، أما من أجل دروس الديانة وتفسير القرآن فلو حضر دروس علماء الدين في المساجد لاستفاد منهم أكثر من المدرسة .

• قال أبي :

ـــ هذا صحيح ولكن ماذا سيفعل بما يتبقى له من الوقت ؟

• قال أخي :

ـــ بلغني أن أستاذاً قديراً يدرِّس في بيته علم الحساب والمحاسبة وأصول مسك الدفاتر التجارية لمن شاء من الطلاب لقاء أجر معقول ، وقد أُثني عليه أمامي كثيراً ، فلا يحتاج صبي في مثل عمر صالح ، وفي مثل نباهته واجتهاده إلى أكثر من دراسة سنة أو تزيد قليلاً حتى يجيد هذا العلم . ومحلنا في أمس الحاجة إلى من ينظم أموره المالية .

• قال أبي :

ـــ إن رأيك ياعبد الصمد عين الصواب. ثم التفت إليَّ وقال:

ـــ ماهو رأي صالح ياترى؟

• قلت:

ـــ الرأي لك ياأبي. فأنا أحب علم الحساب جداً، وأجد في تعلمه متعة ولذة، ولكن أحب أن أذهب إلى مدرستي أولاً ولو مدة أسبوع فقط، لأنني اشتقت لأساتذتي وزملائي.

• قال أبي:

ـــ لك ماتريد، ولكن مدة أسبوع فقط، ثم يأخذك أخوك إلى معلم الحساب هذا، وفقك الله يابني وسدد خطاك.

• قالت أمي:

ـــ وينهي جدي حديثه تلك الليلة عند هذا الحد من حكايته، ثم ينهض وهو يقول:

ـــ تصبحون على خير ياأولادي، ونرد بصوت واحد:

ـــ وأنت من أهله ياجدي..

* * *

١٠

• قالت أمي :

ـــ ابتدأ جدي حديثه في تلك السهرة قائلاً :

ـــ كان درس الحساب ، يا أولادي ، ممتعاً جداً كما توقعت ، بعد بضعة دروس اكتشف الأستاذ أن لدي ، ولدى طالب آخر قدرة فائقة على استيعاب ما يدرسنا بسرعة ويسرٍ أكثر من بقية الطلاب ، فخصص لنا حصة خاصة مما جعلنا نستفيد من دروسه أكثر من ذي قبل .

بعد سنة ونصف فقط أجرى لنا الأستاذ فحصاً نجحنا به أنا وزميلي نجاحاً مرموقاً ، فأعطانا شهادة تجيز لنا ممارسة مهنة مسك الدفاتر التجارية .

أتصدقون يا أولادي أنه كان لي من العمر حينئذٍ أربع عشرة سنة فقط ، وأذكر أنني سمعت الأستاذ يقول لأخي وهو يناولني الشهادة :

ـــ ما شاء الله ... منذ مارست التدريس ، لم أصادف تلميذاً في عمر

أخيك استطاع أن ينال الشهادة في مثل هذه المدة القصيرة. إن زميله الذي نال مثلها يكبره بثلاث سنوات، وسبق له أن مارس هذه الدراسة قبله.

ويبتسم أخي فخوراً بي، ثم ينقل ما سمعه من الأستاذ إلى أبي، لأن لا شيء كان يسر أبي مثل نجاحي والثناء عليَّ.

في صبيحة ذلك اليوم ذهبت مع أخوي إلى المحل وبدأت بتنظيم الدفاتر كما علمني الأستاذ.

وكم فرحت عندما قال لي أخي:

ـــ لقد خصصنا لك راتباً كأنك غريب، هذا عدا عن حصتك من الأرباح. وأوقن أن هذا من تدبير أبي الحنون. كنت أقتطع كل شهر مبلغاً زهيداً لمصروفي الخاص، وأدخر ما تبقى آملاً أن يجتمع لي مبلغ يكفي نفقات رحلة إلى بلدي داغستان لأزور أمي، لأن شوقي وحنيني إليها ما فترا أبداً رغم انشغالي بالدراسة، ثم بالعمل.

كانت ذكراها تراودني في اليوم الواحد مرات عدة، وما من مرة وضعت رأسي على الوسادة لأنام إلّا خطرت ببالي حكاياتها اللطيفة، وأغنياتها المرحة التي كنت أغفو على أنغامها الشجية وأنا طفل صغير.

لا أخفي عليكم، يا أولادي، أنني شعرت بشيء من الطمأنينة والراحة بعد أن أصبح لي مورد خاص. وفارقني ذلك القلق الذي كان يعكر عليَّ صفو الحياة.

لقد أصبحت أستطيع متى اجتمع لي المبلغ الكافي للرحلة أن أسافر

متى أشاء. فما من أحد يستطيع أن يمنعني عن السفر حتى أبي، ما دمت لست بحاجة إلى معونة أحد.

كان من عادتنا أن نتناول فطور الصباح باكراً مع شروق الشمس، أي بعد صلاة الفجر بقليل. وكم كنا نتبادل الأحاديث في أثناء الطعام، كانت هي الفترة الوحيدة التي تجتمع فيها الأسرة بكاملها حول المائدة.

ذات مرة، قال أبي لأخوي:

ـــ أما زلتما تذهبان صباح كل يوم جمعة إلى سفح جبل قاسيون لتمارسا ركوب الخيل؟

• أجاب أخي:

ـــ نعم يا أبي ما زلنا نذهب إلى هناك صباح كل يوم جمعة لنمارس هذه الرياضة المحببة إلينا. وكم نتمنى أن ترافقنا أيام الربيع، فالطبيعة جميلة هناك بل رائعة، حيث دمشق تبدو من بعيد محاطة بالخضرة من كل جانب، يحتضنها جبل قاسيون، وقد يذكرك هذا المنظر ببعض مدن داغستان القائمة على سفوح الجبال، وإن لم يكن لجبل قاسيون علو جبالنا.

• قال أبي:

ـــ أنا أعرف هذه المنطقة تمام المعرفة، طالما ذهبت إليها برفقة أصدقائي من أئمة الجوامع، وشيوخ المدارس إلى مساجد ومدارس الصالحية حيث كانوا يدرسون هناك، فإذا انتهوا من تدريسهم ومناقشاتهم مع طلبة العلم، رحنا نقوم بنزهة سيراً على الأقدام على ضفاف نهر يزيد بين شجيرات الآس، وأحواض البنفسج. كانت تبدأ رحلتنا من الحي الذي يدعى «حي بين المدارس» حتى

إذا وصلنا إلى جامع الأفرم القائم على سفح جبل قاسيون أدينا فيه صلاة العصر، ثم نستريح قليلاً ثم نتابع سيرنا إلى مكان الجريد هذا في سفح قاسيون حيث يتسابق الفرسان من هواة ركوب الخيل. ونستمتع بمشاهدتهم، وكم كان هذا يذكرني بالمسابقات التي كانت تقام في داغستان بين الشباب.

وبصمت أبي قليلاً ثم يوجه كلامه إلى أخويّ قائلاً:

ـــ أتدريان لمَ سألتكما عن ذهابكما إلى ممارسة ركوب الخيل؟

• قال أخي الصغير:

ـــ أنّى لنا أن ندري يا أبي سبحان الذي يعلم ما في الصدور؟

• قال أبي وهو يوجه إلى أخويّ نظرات فاحصة عاتبة:

ـــ سألتكما لأعرف ألم يخطر ببالكما أن تصطحبا معكما أخاكما صالح لتعلماه الفروسية؟

لو أنني ما زلت قادراً على ركوب الخيل لأعفيتكما من هذه المهمة. ولكن قاتل الله الشيخوخة!.. أنا لا أستطيع أن أتصور فتى داغستانياً في عمر صالح لا يجيد ركوب الخيل. ألا تذكران أنني بدأت أعلمكما الفروسية وأنتما أصغر منه بكثير.

ارتبك أخي الكبير، ثم قال:

ـــ لقد فكرت بذلك يا أبي، ولكني آثرت أن أنتظر قليلاً ريثما يكبر أولادنا فندربهم جميعاً على أصول ركوب الخيل.

• قال أبي منددأ:

ـــ ليس هذا بعذر مقبول ... ما ذنب صالح لينتظر حتى يكبر أولادكما؟ منذ الجمعة الآتية ستأخذانه معكما وتبدآن تعليمه.

• قال أخي:

ـــ كما تشاء يا أبي.

وينهض أبي ويسير نحو غرفته متزن الخُطا، منتصب القامة، كشأنه دائماً.

نظر إليَّ أخي الكبير، وقال:

ـــ يوم الجمعة إن شاء الله ستذهب معنا لنعلمك أصول ركوب الخيل كما يريد أبونا، وستسر كثيراً بهذه الرياضة الممتعة. ولكن هل لديك سروال يصلح للركوب أم أشتري لك واحداً؟

• قلت:

ـــ بل لدي واحد، وقد سبق لي أن مارست ركوب الخيل قليلاً، كنت تعلمته من أصدقاء لي، عند أهلهم مزرعة يربون فيها الخيول، وكانوا يصطحبونني معهم إليها ويعلمونني أصول الركوب، حتى أصبحت أستطيع الجري بالحصان دون خوف.

• قال أخي:

ـــ يالك من خبيث!... لماذا لم تذكر هذا أمام أبينا ليخف لومه لنا؟

• قلت وأنا أبتسم:

ـــ خشيت أن يوبخني أبي، لأنني أخفيت عنه ذلك خشية أن يمنعني من الذهاب، وما كنت أدري أنه يحبذ ركوب الخيل إلى هذا الحد.

منذ بدأت أذهب مع أخويَّ إلى الجريد، أي مكان ركوب الخيل، أصبح أحب الأوقات إليَّ هو صباح يوم الجمعة. كنت أنتظر ميعاده يوماً فيوماً، كنا بعد صلاة الفجر وتناول فطور الصباح نرتدي ألبستنا ذات الطراز الداغستاني ونضع القلابق على رؤوسنا، ثم نذهب إلى سوق الخيل نستأجر ثلاثة أحصنة، وكان أخي ينتخب لي حصاناً عجوزاً هادئاً كي لا يجمح بي فلا أستطيع ردّه، بعد بضعة شهور أصبحت أجيد الركوب، فراح أخي ينتقي لي حصاناً فتياً، وبعد مدة وجيزة، تجرأت ودخلت في مسابقات مع فتيان في مثل عمري، أحياناً كنت أفوز وأحياناً أخفق. ولكنني لم أجرؤ أن أدخل في سباق مع أخويَّ إلّا بعد مدة طويلة من ممارستي لهذه الرياضة.

كان أخواي يفوزان في كل سباق يدخلان فيه حتى اشتهرا كأحسن فارسين في دمشق.

سمعت مرة حواراً يدور بين فارسين دمشقيين وهما يشاهدان أخويَّ يتسابقان.

● قال أحدهما:

ـــ ما أروع هذين الفارسين الداغستانيين، لكأنهما يطيران بحصانيهما طيراناً.

● قال الآخر:

ـــ وأنت أيضاً فارس لا يشق لك غبار، فلـمَ لا تدخل معهما في سباق؟

ابتسم الرجل، وهو يهز رأسه يميناً ويساراً، وقال لزميله:

ـــ يا رجل! أتظن أن لعبتك هذه تفوت عليَّ؟ أنت تريد أن تورطني، وتراني مهزوماً، لأنك لم تستطع هزيمتي في مسابقة مهما بذلت من جهد. الداغستانيون، يا أخي دوخوا الامبراطورية الروسية بفروسيتهم، وما زالوا يدوخونها، أتريدنا أن ننتصر عليهم.. هيهات هيهات!

شعرت باعتزاز كبير وأنا أستمع إلى حوارهما، ولما نقلته إلى أبي علت وجهه مسحة حزن ثم قال:

ـــ يا ضياعك يا بلدي داغستان، ويا لهفتي على فرسانك الشباب يموتون سدىً.

أنهت أمي حديثها تلك الليلة قائلة:

ـــ نهض جدي وقد علت وجهه أيضاً سحابة حزن، وقال لنا بصوت خفيض:

ـــ تصبحون على خير.

* * *

١١

• قالت أمي :

ــ استأنف جدي حديثه بعد أن تحلقنا حوله كعادتنا كل سهرة قائلاً :

ــ لاحظت ذات يوم في أثناء تناولنا الفطور أن أبي كان صامتاً على غير عادته ، لم يأكل إلّا قليلاً . خيِّل إلي أنه مشغول البال بأمر هام ..

فلما انتهينا من طعامنا وهممنا بالنهوض لنذهب إلى عملنا ، قال أبي بصوته العميق ولهجته الآمرة :

ــ اجلسوا قليلاً أريد أن أتحدث إليكم . فاتجهنا بأبصارنا نحوه ، فإذا هو يفاجئنا مفاجأة جعلتنا مشدوهين لحظة حين قال :

ــ عزمت إن شاء الله أن أسافر بعد غدٍ إلى القاهرة مع أصدقاء لي من التجار .

• تمتمنا كلنا مشدوهين :

ـــ إلى القاهرة ؟؟

• قال ضاحكاً :

ـــ نعم إلى القاهرة ، مالكم تستغربون ذلك كأنني سأسافر إلى بلاد الواق الواق ؟؟...

القاهرة ليست بعيدة جداً من دمشق .

• قال أخي الكبير :

ـــ هل يسمح أبي أن يذكر لنا ما الداعي إلى هذه السفرة هكذا فجأة ؟...

• قال أبي :

ـــ ليست فجأة ، كما تتصور يا بني ، لقد فكرت بها منذ زمن بعيد ، ويبدو أنه قد آن الأوان ، حين وجدت من يرافقني من أصدقائي وأرتاح إلى رفقته .

أما الغاية من سفري فهي أن لي أصدقاء من المصريين من زملائي القدامى في أثناء الدراسة ، وقد بلغني أنهم يشغلون الآن مراكز مرموقة في الدولة المصرية وهم من المقربين من حاكم مصر الأمير محمد علي ، فإذا رجوتهم أن يسعوا لي لدى الأمير لأقابله وأرجوه أن يتوسط لي لدى الدولة العثمانية لإرجاعنا إلى بلادنا . وأنا على يقين أن أصدقائي لن يتوانوا أبداً عن إسداء هذا المعروف

إليّ ، فأنا أعرف أنني عزيز عليهم ، أثير لديهم . إن أكثر ما يحزنني يا أولادي هو أن أموت غريباً ، وألّا أُدفن في تراب داغستان .

وأرى أنه قد حان حيني ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

• صحنا كلنا بصوت واحد :

ـــ بَـعُد الشر عنك يا أبي .

• قال وهو يبتسم :

ـــ مهما بَـعُد ! لا بد أن يأتي إنها سنَّة الكون !...

• قال أخي الكبير :

ـــ اسمح لي يا أبي أن أرافقك في هذه السفرة ، لأنها شاقة على من هو في مثل عمرك .

• قال أبي بحزم :

ـــ لا ، لا لست بحاجة إلى رعاية أحد منكم ، إن صحتي جيدة الحمد لله ، وتفكيري أجود ، وأصدقائي سيرعونني عند الحاجة كأي واحد منكم ، وإن كنت لست بحاجة إلى رعاية أحد سوى رعاية ربي .

• قال أخي الأصغر :

ـــ إنني أحلم منذ زمن بعيد بزيارة القاهرة ، أرجوك يا أبي خذني أنت برعايتك ودعني أسافر معك .

• قال أبي متأففاً :

ـــ يمكنك أن تزور القاهرة متى شئت، ودون رعايتي. أما الآن فلا أريد أن يرافقني أحد منكم، أفهمتم؟.. إن تكاليف السفرة باهظة هذه الأيام، ونحن أحوج إلى نقودنا من أن نبددها دون طائل.

ثم ينهض ويسير نحو غرفته، وهو يقول:

ـــ ما هي إلّا عشرة أيام وستمر إن شاء الله على خير وسلامة، ولا يصيبنا إلّا ما قدر الله لنا.

لما توارى أبي في غرفته، قال أخي الكبير:

ـــ لا حول ولا قوة إلّا بالله، لقد تشاءمت من هذه السفرة، ولا نستطيع أن نثنيه عنها أبداً، من عادة أبي ألّا يتراجع عن رأيه أبداً.

• قلنا بصوت واحد:

ـــ نسأل الله أن تأتي العواقب سليمة.

منذ سافر أبي خيم على بيتنا جو من الكآبة والحزن. كنا قلما نتحدث إلى بعضنا عما يعتمل في نفوسنا من هواجس. كل واحد منا كان ينفرد بهواجسه، ويحذر أن يشرك بها الآخرين. ظناً منه أنه وحده المتشائم من هذه السفرة.

مضت عشرة أيام دون أن يصلنا خبر عن أبينا فازدادت هواجسنا سوءاً. ثم مضت ثلاثة أيام أخر، فإذا أحد أصدقاء أبينا من الذين سافروا معه إلى القاهرة يأتي لزيارتنا بين صلاتي المغرب والعشاء حاملاً لنا خبر نعي أبينا!..

ما كان أشد وقع هذا الخبر علينا جميعاً. ولكننا تلقيناه بصبر عجيب وقدرة فائقة على كبت عواطفنا أمام الرجل.

كنا كما يريدنا أبونا أن نكون: رجالاً في كل المواقف.

صمتنا برهة، ثم اقترح علينا الرجل الذي حمل إلينا الخبر المشؤوم أن نقرأ الفاتحة ونهبها لروح أبينا.

بعد قراءة الفاتحة رحنا نوجه الأسئلة إلى الرجل.

كيف مات أبونا؟

هل مرض من مشقة السفر؟

هل أصابه مرض مفاجئ؟

هل جرى له حادث أدّى إلى الموت؟

● قال الرجل:

ـــ لم يؤثر علينا السفر مطلقاً، ولم يصب بمرض أو حادث، منذ وصلنا القاهرة اتصل رحمه الله بأصدقائه المصريين فاستقبلوه أحسن استقبال، وفرحوا بلقائه، وراحوا يسعون له لدى الأمير محمد علي فاستقبله استقبالاً يليق بمكانته كما قيل لنا، ولكن الأمير اعتذر له عن التوسط لدى الدولة العثمانية لإرجاعكم إلى بلادكم، لأن الأمور كانت متأزمة جداً بين الأمير والدولة العثمانية في هذه الآونة.

عاد إلينا أبوكم بعد زيارته تلك يائساً، متصدع القلب، كان يقول لنا:

ـــ أشعر أن يومي قد اقترب، ولن يكتب لي على ما أعتقد أن أدفن في تراب وطني داغستان!.. فإذا متُّ هنا يا أصدقائي ادفنوني في تربة الجراكسة

التي زرناها معاً لأكون على الأقل بين بعض أبناء وطني وعشيرتي . ثم دفع لنا ما كان يحمل من مال وقال : أعتقد أن هذا يكفي لتجهيزي إلى قبري .

حاولنا جهدنا أن نخفف عنه الأمر ما استطعنا ، فلم نفلح . أبى ليلتئذٍ أن يتناول معنا طعام العشاء . توضأ ثم صلّى ثم أوى إلى فراشه باكراً ، فلما جئنا نوقظه من أجل صلاة الفجر وجدناه ميتاً رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جنانه ، لقد مات حزناً وكمداً كما قدرنا ، فصعب علينا فراقه ، كان والله نعم الصديق شهماً ، وفيّاً ، ديّناً . لقد أعلنّا عن وفاته من أكثر جوامع القاهرة فجاء خلق كثير لتشييعه ، ودفنّاه في مقبرة الجراكسة كما أوصانا ثم أقمنا له قبراً يليق بمكانته .

ثم يناول الرجل أخي الكبير كيساً فيه قليل من النقود قائلاً لنا :

ــ هذا ما تبقى يا أولادي من نقود أبيكم ، وهذه ساعته ومصحفه ، أما ملابسه فقد وزعناها على الفقراء هناك لاعتقادنا أن لا حاجة لكم بها .

هذه سنّة الكون يا أولادي جعلكم الله خير خلف لخير سلف ، وعظّم أجركم وألهمكم الصبر والسلوان .

تناول أخي الكيس والساعة والمصحف من الرجل ، ثم شكره جزيل الشكر على ما قام به من معروف في سبيلنا . ودّعنا الرجل ، وانصرف .

قمنا نحن وحملنا الخبر إلى نساء الأسرة فبكين ، ولطمن وجوههن ، وشاركناهن في البكاء ، فقد أصبحنا وحدنا نستطيع أن نترك نفوسنا على سجيتها .

بعد فترة طويلة انسللت إلى غرفتي وأغلقت بابها عليَّ فوجدتها شديدة

الوحشة. كنت أنام أنا وأبي فيها، نظرت إلى سريره الخالي فقمت ودفنت رأسي في وسادته، ورحت أجهش بالبكاء، لقد انهار الصرح الذي كنت أستند إليه غير مبالٍ بشيء من أمور حياتي، آه لو أن أمي كانت الآن إلى جانبي لعرفت كيف تواسيني وتهدهد أحزاني، لقد أصبحت الآن وكأني يتيم الأبوين.

في الصباح أرسل أخي من يبلغ أئمة الجوامع خبر وفاة أبي في القاهرة فأعلنوها من جميع مآذن دمشق.

في المساء دعونا عدة مشايخ من ذوي الأصوات الجميلة ليقرؤا القرآن في دارنا، وفتحنا باب بيتنا على مصراعيه، وظللنا ثلاثة أيام نستقبل المعزّين رجالاً ونساء. الرجال كنا نستقبلهم في البرّاني، والنساء يدخلن إلى الجوّاني حيث تستقبلهن نساء الأسرة. وتقدم إلى الجميع القهوة المرّة حسب تقاليد مدينة دمشق.

بعد مضي ثلاثة أيام، قال لنا أخي الكبير الذي أصبح يجلس في مكان أبيه على المائدة:

ـــ سأذهب خلال هذا الأسبوع إلى القاهرة لأزور قبر أبي.

هممت أن أقول له:

ـــ خذني معك يا أخي، فأنا أحب أيضاً أن أزور قبر أبي.

ولكن أخي الأصغر سبقني، وقال لأخيه الكبير:

ـــ سأذهب معك إن شاء الله:

• قال أخي الكبير :

ـــ وعلى من سنترك محلنا ؟

• قال أخي الأصغر :

ـــ البركة في صالح، لم يعد صغيراً، سيدير المحل في أثناء غيابنا على أكمل وجه .

ولن يطول غيابنا أكثر من أسبوع .

شعرت أن لا فائدة من الاعتراض فسكتُّ على مضض .

قمت في أثناء غياب أخويَّ بإدارة المحل على أحسن وجه ، كما توقعا لي ، مما جعلهما يثنيان عليَّ كثيراً . قمت بذلك رغم أنني كنت حزيناً وتعيساً إلى أبعد حد .

عندما عاد أخواي تحدثا إلينا عن قبر أبينا ، وكيف وجداه مبنياً بناءً جيداً يليق بمكانته . ثم يقترح أخي الكبير أن نذهب نحن الثلاثة لنزور أصدقاء أبي الذين رافقوه إلى القاهرة ، ونشكرهم جزيل الشكر على ما بذلوه في سبيل أبينا ، وفي سبيلنا أيضاً من معروف لا ننساه لهم أبداً .

* * *

١٢

• ابتدأت أمي حديثها قائلة :

ـــ أذكر أن جدي تنهد قبل أن يبدأ حديثه تلك الليلة ، وقد علت جبينه سحابة حزن ثم قال :

ـــ لقد مضى شهر كامل على وفاة أبي ، ولم أنسه خلال هذا الشهر لحظة واحدة . كنت حين أدخل غرفتي ميعاد النوم أشعر بوحشة قاسية ، وكلما نظرت صوب سريره كنت أتصوره ممدداً فيه مغمض العينين ، أكاد أسمع صوت تنفسه ، فيجفو عيني النوم ، وينتابني أرق مضنٍ فأظلُّ أتقلب في فراشي حتى أُنهك تماماً ، حينئذٍ كان يغتالني نوم مضطرب أصحو منه حيناً بعد حين على حلم مزعج أو كابوس مخيف ، ولا ينقذني من هذا العذاب إلّا صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر ، فأنهض فوراً من فراشي ، أنزل إلى باحة الدار ، ثم أتوضأ ، وأذهب إلى الجامع الأموي القريب من دارنا لأصلي خلف الإمام فإذا انتهيت من صلاتي ، جلست في صحن الجامع فترة فأشعر بشيء من الراحة وأنا أسرح نظري في رحابة باحة هذا الجامع التي تشرح الصدر مهما

كان مغموماً . وبعد فترة قصيرة أعود إلى بيتنا لأتناول طعام الفطور مع الأسرة . ثم أذهب إلى المحل القريب من بيتنا أيضاً لأمارس عملي .

فإذا زوجة أخي الكبير تناديني ذات صباح إلى غرفتها وتقول لي وقد بدت مرتبكة بعض الشيء :

ـــ ألا تجد ياأخي الصغير أن غرفتك قد أصبحت كبيرة عليك ؟

وأجيبها فوراً :

ـــ طبعاً ، طبعاً ، كنت أود أن أقول لك ذلك ، قالت :

ـــ أنت دائماً مهذب وعاقل . وأقول في نفسي :

ـــ يا لي من غبيٍّ ! أما كان أشرف لي أن أقترح عليها هذا الاقتراح قبل أن تقترحه هي عليَّ ؟ فليس من المناسب أبداً أن أنام وحدي في هذه الغرفة الكبيرة ، وينام أخي الكبير مع زوجته في غرفة أصغر منها .

ثم قالت زوجة أخي :

ـــ لقد كبر الأولاد ، وضاقت غرفتهم بهم ، وأصبح من الصعب أن ينام كل اثنين منهم في سرير واحد ، لذا سأنقل سريري الصبيين إلى غرفتنا ، وأدع البنات الأربع في غرفتهن . فإذا أحببت أن تنام مع ابني أخويك نقلت سريرك إلى غرفتهم ، فهي تتسع لثلاثة أسرّة . وإذا شئت أن تنام وحدك سأهيء لك غرفة النصيّة فهي تتسع لسريرك وحوائجك .

فوجئت ، لأنه لم يخطر ببالي هذا الحل أبداً ... ظننت أنهم سينقلوني إلى غرفة أخي الكبير . تمهلت بالجواب قليلاً فوجدت أن لا فائدة من

الاعتراض فالأمر لا شك أنه قد قرر قبل أن يعرض عليَّ . قلت لها باختصار وامتعاض :

ـــ أفضل أن أنام وحدي حيث كان ، كي لا أنزعج ولا أزعج غيري .
وانصرفت من أمامها وأنا أقول في نفسي :

ـــ أهكذا آل أمرك يا صالح ؟!.. بعد أن كنت تنام في أكبر وأشرح غرفة في البيت أصبحت تنام في النصية حيث كانوا يضعون الكراكيب ، في أحقر وأبشع غرفة في البيت ، رحمة الله عليك يا أبي لا أدري ما سيلحقني من حيف بعدك ؟!...

ولكن ما العمل ؟... ليس أمامي سوى الرضى بالأمر الواقع .

عدت في المساء ، صعدت فوراً إلى النصية دون أن أكلم أحداً ، وجدت سريري قد نُصب فيها ، وإلى جانبه وُضع صندوق صغير حشرت فيه جميع حوائجي ، وفي الجانب الآخر وضع كرسي حشر أيضاً بين الجدار والسرير . خطر لي أن أفتح الباب ، وأقذف بهذا الكرسي إلى أرض الديار بكل ما لدي من قوة احتجاجاً على وضعي هذا ، ولكنني تذرَّعت بالصبر ، ورحت أتأمل النصية ، كان بين السرير والجدار المقابل له ثلاثة أشبار فقط ، شعرت كأن الجدار سيطبق على صدري ، ولم يكن لها شباك . كان لها طاقة فوق الباب يتسرب منها نور ضئيل ، جلست على حافة السرير ، وأجهشت بالبكاء . بعد قليل هدأت أعصابي قليلاً فرحت أعالج أموري بروية واتزان ...

ماذا تستطيع أن تفعل زوجة أخي إذا كبر الأولاد وأصبحت غرفتهم

لا تتسع لهم جميعاً؟ كما أن غرفة النصية لا تتسع لسريرين، وأنا الوحيد من سكان هذا البيت الذي ينام وحده، فعلي أن أسكت وأرضى بهذا الواقع.

أصبحت أيامي تمر باهتة لا طعم لها، وكنت لا أشعر بشيء من السعادة أو المتعة إلّا في يوم واحد من أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، حين كنت أذهب مع أخويَّ إلى الجريد في حيّ الصالحية لنمارس ركوب الخيل، هناك كنت أجتمع مع أعز صديقين عليَّ هما قاسم وسعيد وكنت قد تعرفت عليهما في المدرسة، وفي بستانهما تعلمت ركوب الخيل أول مرة. وكنت أطلب من أخويَّ أن يأذنا لي لأمضي يوم الجمعة في بستانهما، وأحياناً كنا نتسلق الأشجار فنقطف ما يحلو لنا من ثمارها، فإذا شعرنا بالحر خلعنا ألبستنا، ورحنا نسبح في نهر يزيد الذي كان يمر بأقصى البستان صافياً رقراقاً. وكان والد صديقيَّ أبا قاسم الصالحاني شيخ البساتنة في حي الصالحية رجلاً شهماً كريماً ممراحاً وكان يحبني كولد من أولاده، وكنت أجلّه وأرتاح إليه.

وراحت الأيام تمر سراعاً، فلا أشعر بمرورها لأنها كانت متشابهة، متماثلة، أحياناً أكاد لا أصدق أنني قد بلغت الثامنة عشرة من عمري، وقد أصبحت أطول من أخويَّ، ويُزين وجهي شارب أسود كثيف، وأهم من هذا كله أنني أصبحت أملك خمساً وعشرين ليرة ذهبية جمعتها خلال أربع سنوات من راتبي ونصيبي من أرباح المحل، وكنت أضعها في كمر من جلد بني أتزنر به تحت ثيابي لأطمئن عليها، هذا المبلغ أصبح يكفي تكاليف السفر إلى داغستان ذهاباً وإياباً مع شراء هدايا ثمينة إلى أمي وخالاتي وأخوالي. وسأفاجئ أخويّ برغبتي هذه أول الصيف القادم، ولن يستطيع أحد أن يثنيني عن رغبتي هذه ما دامت نقودي معي ولست بحاجة إلى أحد، لقد

أوشك حلمي الذهبي أن يتحقق، وراحت تنتابني أحلام حلوة فلم أعد أشعر بضيق النصية وحقارتها.

جاء يوم الجمعة، فذهبت مع أخويَّ إلى الجريد لنركب الخيل وهناك اجتمعت بصديقيّ قاسم وسعيد، ثم ذهبت معهما إلى بستانهما لنمضي يوماً ممتعاً كما هي عادتنا.

تلقاني يومئذٍ والد صديقي أبو قاسم الصالحاني هاشاً باشاً، وقال لي:

ـــ جئت في وقتك يا بني... لعل الحظ سيبتسم لك هذه المرة ابتسامة حلوة من ابتساماته النادرات.. إنها فرصة العمر، قد لا يجود بمثلها الدهر مرة أخرى فإياك أن تفوتها. قلت مندهشاً:

ـــ ما الخبر يا عمي، لقد شوقتني والله إلى سماعه.

• قال:

ـــ اصغ إلي يا بني: معروض الآن للبيع في حيِّ الصالحية، وبالقرب من بستاننا هذا، بيت بثمن بخس جداً، ولم أر مدى حياتي بيتاً أجمل أو أروع منه فما رأيك في أن نشتريه لك؟

قهقهت ضاحكاً وقلت:

ـــ سامحك الله يا عمي أبا قاسم!.. أوَتراني أملك من المال ما يكفي لشراء البيوت الجميلة؟

• قال:

ـــ ألم تقل لي ذات مرة إنك تملك خمساً وعشرين ليرة ذهبية تكفيك

تكاليف السفر إلى بلدك داغستان ؟ إن داغستان باقية ، ثق أنها لن تتحرك من مكانها وأمك باقية إن شاء الله فهي ليست عجوزاً فانية ، أما هذا البيت النادر فلن يبقى !.. ولولا أنني مضطر لأن أسكن في هذا البستان لأشرف أنا وأولادي على فلاحته وزراعته ، لأن معيشتنا من ورائه لاستدنت بالربا واشتريت هذا البيت . لقد رضي صاحبه ، وهو رجل مسيحي وصديق لي أعرفه شهماً ونبيلاً أن يبيع هذا البيت بثلث ثمنه ، بأربعين ليرة ذهبية فقط ، لأن الرجل مضطر إلى أن يهاجر إلى أمريكا خلال هذا الأسبوع أو بعد يومين على الأصح ، وقد سبقته زوجه وأولاده إلى بيروت ليحجزوا مكاناً في الباخرة بعد أن باعوا جميع ما يملكون سوى هذا البيت ، وهو معروض للبيع منذ أكثر من شهر ، ولم يتقدم أحد لشرائه ، لأن أهل الصالحية فقراء لا يملكون من المال ما يكفي لشراء البيوت الكبيرة ، وأهل دمشق يجدون الصالحية ضاحية بعيدة عن دمشق لا يرغبون في سكناها أبداً . تعال معي لأريك هذا البيت ، قلت :

ـــ ما الفائدة من رؤيته ما دمت لا أرغب في شرائه ، حتى ولا أملك من المال ما يكفي للشراء . قال :

ـــ ماذا ستخسر ؟ إن رؤية هذا البيت متعة ، تعال ولن تندم إن شاء الله .

فأذعنت لمشيئته مراعاة له فقط .

كان البيت غير بعيد من بستان أبي قاسم . طرقنا الباب ففتح لنا كهل وقور ، تنم هيئته عن نبل ودماثة . رحّب بنا ببشاشة . قال أبو قاسم :

ـــ لقد جئتك يا خواجه يوسف بزبون شرّاء إن شاء الله .

ظننت أنه يمزح . لما خرجنا من الدهليز إلى باحة الدار وقفت ذاهلاً ؟ مأخوذاً ، لم يسبق لي أن رأيت بيتاً أروع منه . أقول الحق لقد عشقت هذا البيت من أول نظرة . إنه أشبه ما يكون بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار .

كانت باحة الدار واسعة مستطيلة الشكل مرصوفة بالحجر الأسود والرخام المزي ذي اللون الزهري ، وقد رصفت بأشكال هندسية جميلة ، وفي منتصفها بحرة دفّاقة مصنوعة أيضاً من الرخام المزي ، في صدر الباحة يوجد ليوان عن يمينه مخدعان ، وعن يساره مخدعان ومطبخ . وكنا في فصل الربيع وقد فتّح الورد والمنثور والليلك والشب الظريف في الأحواض التي تؤطر الباحة ، وقد عرّش الياسمين ، والبنفشة الصفراء والبيضاء والعراتلي على الجدران . والباحة تشرف من علٍ على حديقة واسعة يُنزل إليها ببضع درجات من الرخام الزهري . وقد شطر نهر يزيد الحديقة إلى شطرين يتصلان بجسر ضيق ، وأمام الجسر ارتفعت ناعورة ضخمة لترفع الماء إلى بحرة الدار ، وإلى المطبخ أيضاً ، وكان يسمع لدوران الناعورة أنين لطيف يختلط بصوت خرير المياه التي تنحدر من الناعورة ، وزقزقة العصافير فإذا هي معزوفة موسيقية رائعة من تلحين هذه الطبيعة السمحاء . وفي الحديقة انتصبت أشجار الخوخ والمشمش والدراق والتفاح وقد كساها الربيع أزهاراً بيضاء فوّاحة الأريج ، فكأنها والله عرائس تنتظر من يجلوها ، وفوق النهر نُصبت دوالي العنب . وفي صدر الحديقة جدار في منتصفه باب قصير . قال الخواجة يوسف وأشار بيده إلى الباب :

ـــ هذا الباب يؤدي إلى حديقة الدار البرّانية .

وقفت مشدوهاً حين عرفت أن هناك أيضاً داراً برّانية . أخرج الخواجة يوسف مفتاحاً من جيبه وفتح الباب القصير ، وإذا أمامنا حديقة أكبر من

حديقة الجوّاني، مزروعة كلها بأشجار الحمضيات، والجوز والبندق. ثم صعدنا من الحديقة إلى الدار البرّانية فإذا هي أصغر من الجوّاني وأقل أناقة. ذهب الرجل ليعد لنا القهوة، انتهز أبو قاسم الفرصة ووشوشني قائلاً:

ـــ إياك يا بني أن تضيع هذه الفرصة سأدينك خمس عشرة ليرة، وقد حملت معي كل ما أملك من مالٍ وهو لا يزيد عن عشرين ليرة ذهبية. فإذا لم تشأ أن تحتفظ بهذا البيت سنبيعه على مهل بأضعاف ثمنه، وسيأخذ كل واحد منا حقه مع الأرباح، وإن شئت أن تحتفظ به، وهذا ما أتمناه لك، ستفي دينك شيئاً فشيئاً، وسأصبر قدر ما تريد. ثم قال ضاحكاً:

ـــ سأكون مطمئناً على نقودي وهي في ذمتك أكثر مما لو كانت في صندوقي معرَّضة للسرقة في كل حين. ثم أردف قائلاً:

ـــ بعد أن نشرب القهوة، سنكتب عقد البيع، وغداً صباحاً سنذهب مع الخواجة يوسف لنسجله في الدائرة العقارية، قلت:

ـــ لا، لا، ياعمي أرجوك لا أستطيع أن أوقع عقد البيع قبل أن أستشير أخويَّ قد يغضبان عليّ إذا لم أستشرهما في مثل هذا الأمر المهم، وأنا حريص جداً على رضاهما.

• قال أبو قاسم بإصرار:

ـــ إيّاك أن تفعل يا ابني يا صالح، قد لا يوافقان على الشراء لأمر ما فتضطر إرضاءً لهما أن تنكل عن البيع وهذا ليس في صالحك أبداً، وستندم أشد الندم، أنت الآن رجل بالغ راشد تستطيع أن تتصرف بأمورك كما تشاء. وماذا سيحدث؟ سيغضب أخواك عليك فترة، ثم لا تلبث أن تعود المياه إلى

مجاريها. ولكني أؤكد لك أن أخويك سيفرحان لك كثيراً عندما يريان هذا البيت الذي كأنه جنة الخلد.

بعد أن شربنا القهوة كتبنا العقد، واتفقنا أن نذهب صباح الغد لتسجيله في دائرة العقارات. تلفت أبو قاسم حواليه، ثم قال لصاحب البيت:

ـــ يا خواجة يوسف ألا تترك لنا هذه الكراكيب هدية على البيعة؟...

ضحك الرجل، وقال:

ـــ سامحك الله يا أبا قاسم.. أتسمي هذه الأرائك والسرر والصناديق والكراسي المصنوعة من خشب الجوز الممتاز عند أحسن النجاريـــن كراكيب؟؟.. لقد عرفتك بستانياً ناجحاً، ولم أعرفك أبداً تاجراً محنكاً... والله لولا أن شحنها إلى أمريكا يكلفني كثيراً لما فرّطت بها أبداً. لقد اتفقت مع دلّال ليأتيني صباح اليوم ببعض الزبائن وقد أذّن لصلاة الظهر ولم يأت بعد. قال أبو قاسم:

ـــ ليس هناك أكذب من هؤلاء الدلّالين، سلني أنا عنهم.. من أجل أن تكون راضياً سندفع لك ليرتين ثمنها، وهذا أقصى ما نستطيع أن ندفع فما رأيك؟

تحول الرجل، ثم قال: على بركات الله.

مدّ أبو قاسم يده إلى عبّه وأخرج منه كيساً فيه كل ما يملك من نقود وأخذ يعد سبع عشرة ليرة ذهبية دفعها إلى الرجل. وفككت أنا أيضاً الكمر الذي أتزنر به وأخرجت نقودي منه الخمس وعشرين ليرة ذهبية ودفعتها إلى

الرجل، فكتب لنا إيصالاً أعطاه إلى أبي قاسم ثم ناولني مفتاح البيت وهو يقول لي بلهجة صادقة:

ـــ ألف مبروك يا ابني، لقد سرني جداً أن يؤول هذا البيت العزيز عليَّ جداً إلى فتى نبيل مثلك يقدر الجمال والذوق. حافظ يا ابني على شجيراته وأزهاره لقد ربيتها والله واعتنيت بها كما ربيت أولادي، واغرورقت عيناه بالدموع!...

كدت أبكي أيضاً وأنا أستمع إليه. وكأن المفتاح الذي ما زال في يدي قد نقلني من حلم جميل إلى واقع لا يسرّ كثيراً!... وقفت صامتاً وأنا أردد في نفسي:

ـــ لقد خنت أمي حين فضلت هذا البيت على زيارتها!.. وعققت أخويَّ حين اشتريت هذا البيت دون أن أستشيرهما، وهذا ليس بقليل بالنسبة إليهما وأصبحت مديوناً!... ما أدري كيف سأدبر أموري!... أية ورطة هذه التي رماني بها عمي أبو قاسم عن طيب نية.

قالت أمي: عندما وصل جدي إلى هنا انتصب واقفاً، قلنا له:

ـــ قل لنا يا جدي بكلمتين فقط: ماذا كان موقف أخويك منك؟

قال:

ـــ هذا ما سأحدثكم به غداً إن شاء الله، وأخذ طريقه نحو غرفة نومه.

* * *

١٣

• قالت أمي بعد أن التأم شملنا حول الموقد:

ـــ ما كاد جدي ليلتئذٍ يجلس في مكانه المعتاد حتى نظر إلى كل منّا نظرة متسائلة ثم قال:

ـــ أظن أنكم يا أولادي في شوق ملح لتعرفوا كيف كان موقف أخويّ مني بعد أن عرفا أنني اشتريت بيتاً دون أن أستشيرهما. في الواقع كانت غلطتي كبيرة، ما كان ليجوز لي أن أقترفها، لكن الظروف هي التي فرضت عليَّ هذا التصرف، ولولا اعتقادي أن أخويّ سيسران كثيراً عندما يريان هذا البيت لما أقدمت عليه مهما كان وراءه من ربح.

كان من عادتي أن أصل كل يوم إلى المحل قبل أخوي بنصف ساعة على الأقل، لأفتح المحل للعامل الذي كان ينتظرني عادة أمام الباب لينظف المحل ويرتبه قبل مجيء أخوي.

ولكنني جئت في ذلك اليوم متأخراً عن موعدي ثلاث ساعات، لأننا

جئنا أنا وأبو قاسم سيراً على الأقدام من حي الصالحية حتى ساحة المرجة، حيث الدائرة العقارية في شارع متفرع عن تلك الساحة. ووقفنا أما الدائرة ما يقرب ساعة ننتظر الخواجة يوسف الذي كان يسكن عند أحد أقربائه في حارة النصارى، ثم سجلنا عقد البيت فاستغرق تسجيله أيضاً فترة ليست بالقليلة. عندما دخلت المحل كان من حسن حظي خالياً من الزبائن. نظر إليَّ أخي الكبيرة نظرة قاسية غاضبة، ثم قال بصوت عالٍ:

ـــ أين كنت؟ ما شاء الله!.. أتنام خارج البيت عند أصحابك ثم تأتي متأخراً ثلاث ساعات عن موعدك؟ ألم تفكر بنا أبداً؟ ألم يخطر لك أننا سنقلق عليك وينشغل بالنا؟ ألم يكفك لعباً وتسلية يوم بكامله؟ قلت:

ـــ لا والله ما كنت ألعب ولا أتسلى، تأخرت لأنه كان لدي شغل ضروري. قال أخي بلهجة ساخرة:

ـــ وما هو ما شاء الله هذا الشغل الضروري؟ قلت:

ـــ لقد اشتريت البارحة بيتاً في حي الصالحية، وذهبت اليوم صباحاً لتسجيله في دائرة العقارات.

كنت أتكلم وأخي يحملق إليَّ دهشاً ثم صرخ لأخي الأصغر:

ـــ تعال يا أحمد... تعال اسمع هذه السمعة.. أخوك الصالح أصبح ما شاء الله يشتري البيوت ويسجلها بإسمه دون أن يسأل عنا أو يستشيرنا، كأننا لا نمتُّ إليه بصلة. ويركض أخي أحمد من أول المحل حتى إذا صار أمامي قال بلهجة لا تقل قسوة عن لهجة أخيه:

ـــ أحقاً ما يقوله أخوك أم تمزح؟ أوَتملك من المال ما يكفي لشراء البيوت؟ قال أخي الكبير:

ـــ أنا أعرف أنه لا يملك سوى خمسٍ وعشرين ليرة كان يجمعها قرشاً قرشاً ليذهب إلى داغستان ويرى أمه كما كان يدّعي... وهذا المبلغ لا يكفي لشراء البيوت مهما كانت صغيرة وحقيرة قلت:

ـــ لقد استدنت بقية المبلغ.

ما كدت ألفظ هذه الكلمة حتى قفز أخي الكبير من مكانه وهو يقول:

ـــ هل سمعت مرة يا مجنون أن واحداً من أسرتنا مدّ يده إلى أحد من الناس ليستدين منه؟ أنسيت وصية أبيك التي كان يكررها دائماً: إيّاكم والدين إنه ذلّ بالنهار وهمّ بالليل.

• قلت:

ـــ دعني أشرح....

قبل أن أتم كلمتي رفع يده ولطمني على خدي لطمة قوية لم أنسها أبداً لأنها اللطمة الوحيدة التي ذقتها في حياتي. ثم قال لي:

ـــ اذهب من أمامي ولا ترني وجهك أبداً.

وأسمع أخي الصغير يقول:

ـــ لا شك أن أحد الدجالين قد ضحك عليه ولعب بعقله وسلبه نقوده.

خرجت من المحل هائماً على وجهي لا أدري ماذا أفعل. ثم خطر لي أن أذهب إلى البيت فأغير ثيابي، ثم أعود إلى أبي قاسم الصالحاني فأحكي له ما حدث لي عساه يستطيع أن يخرجني من هذه الورطة التي رماني بها.

فتحت باب بيتنا بمفتاحي ودخلت، وجدت زوجة أخي الكبير في باحة الدار تسقي أحواض المزروعات التي حول الباحة، فنظرت إلي ثم قالت:

ـــ كفانا الله الشر يا ابني يا صالح ماذا بك؟ ولماذا عدت قبل ميعادك؟ هل أنت مريض؟ إن شكلك لا يعجبني. قلت بصوت متهدج:

ـــ جئت لآخذ ثيابي، لأن أخي عبد الصمد قد طردني من البيت!... قالت:

ـــ معاذ الله أن يفعلها عبد الصمد، أعرف أنه يحبك كأحد أولاده تماماً، لا بد أنك فعلت شيئاً أخرج أخاك عن طوره في تلك اللحظة. قلت:

ـــ أعترف لك أنني قد أخطأت، ولكن أخي لم يشأ أن يستمع لي، بل لطمني على وجهي وقال لي:

ـــ اذهب من أمامي ولا ترني وجهك أبداً. ولو أنه استمع لي لكان اقتنع بوجهة نظري وغفر لي. قالت:

ـــ إذا قال لك لا ترني وجهك، ليس معنى ذلك أنه طردك من البيت، هذه ساعة غضب لعب بها الشيطان. قل لي ماذا فعلت فربما استطعت أن أتلافى الأمر قبل أن يستفحل.

● قلت:

ـــ هل تريدين أن تساعديني حقاً؟ قالت :

ـــ وهل تحتاج هذه إلى سؤال ، سأساعدك بكل ما لدي من قدرة . انكببت على يديها أقبلهما بحرارة . فراحت تبكي ، وتقول لي :

ـــ كفى يا صالح كفى يا ابني ، قل لي ماذا تريدني أن أفعل؟ قلت :

ـــ أريدك أن ترتدي ملاءتك وتأتي معي إلى حيث أريد ، وفي الطريق سأشرح لك كل شيء ، وإن لم تفعلي ما أطلبه منك الآن سآخذ ثيابي وأخرج من هذا البيت دون رجعة ، ولن أريكم وجهي أبداً . إن أرض الله واسعة .

● قالت :

ـــ معاذ الله يا ابني أن أدعك تأخذ ثيابك وتخرج من هذا البيت ، سأفعل ما تريده مني ولو أغضبت أخاك . وترتدي ملاءتها فوراً وتخرج معي . استأجرت عربة إلى حي الصالحية ، وفي الطريق حكيت لها قصة شراء البيت بتفاصيلها الدقيقة . ولكن كان يبدو لي أنها لم تقتنع بعد بكلامي لأنها كانت تقول لي :

ـــ إذا شئت يا ابني أن تشتري بيتاً فما أكثر البيوت المعروضة للبيع في دمشق ، مالك ولحي الصالحية البعيد عنا؟ ولا شك عندي أن أخويك سيساعدانك أكثر مما ساعدك أبو قاسم الصالحاني الرجل الغريب عنا ، وأخشى أن يكون قد لعب بعقلك لأمر يريده . قلت :

ـــ لا تتهمي الرجل يا أختي الكبيرة ، إنه والله رجل صالح ، ولم يرد لي إلّا الخير . أنا لم أفكر بشراء أي بيت لأستشير أخوي ، لكن شراء هذا البيت

بالذات جاء مصادفة، وكان فرصة لا تفوّت، لقد اشتريته كما قلت لك بثلث ثمنه فقط. قالت:

ـــ أنت طيب القلب تصدق ما يقال لك كله. هل يعقل أن يبيع إنسان بيته بثلث ثمنه؟ قلت:

ـــ لن أجادلك لأبرر موقفي، ستحكمين بنفسك ولصالحي أنا عندما ترين البيت. قالت:

ـــ أتمنى ذلك.

وبقينا فترة صامتين إلى أن وصلنا إلى البيت، ولمّا أصبحتْ في باحة الدار وقفتْ مشدوهة كما وقفت أنا عندما رأيت البيت أول مرة، وراحت تتلفت يميناً ويساراً، تنقل نظرها بين باحة الدار والحديقة والناعورة والنهر والأزهار وهي تقول: لم يسبق لي أن رأيت بيتاً أجمل من هذا البيت، أكاد لا أصدق أنك اشتريته بأربعين ليرة فقط، ولما أخذتها إلى الدار البرّانية قالت: أعطيك الحق كله فشراء هذا البيت فرصة نادرة، ولو أنك استدنت هذا المبلغ الضئيل. أستغفر الله لأنني اتهمت صاحبك هذا أبا قاسم الصالحاني بما هو بريء منه. قلت لها:

ـــ سأبقى أنا هنا في البيت ريثما يرضى أخواي علي. إن العربة ما تزال واقفة أمام الباب تنتظرنا ستعودين بها وحدك، وحاولي أن تجعلي أخويَّ عندما يأتيان يوم الجمعة ليركبا الخيل أن يزوراني هنا لعلهما يغيران رأيهما كما غيَّرت أنت رأيك. قالت:

ـــ أعوذ بالله!... لن أدعكم والله متخاصمين أسبوعاً كاملاً. ستبقى

أنت هنا وسأعود أنا بالعربة فوراً إلى المحل وسأصر على أخويك ليغلقا المحل ويأتيا معي إلى هنا . وعندئذٍ ستحل مشكلتنا إن شاء الله بالستر والسلامة ، فلم يسبق أن وقع بيننا خلاف يؤدي إلى القطيعة . قلت لها :

ـــ إنني لا أعرف كيف أشكرك يا أختي الكبيرة ، ولن أنسى معروفك هذا مدى العمر .

● قالت :

ـــ أنت تعرف مكانتك عندي فما معنى هذا الكلام . ونهضت واقفة . سرت معها حتى العربة ودعتها ودعوت لها بالتوفيق ، وأوصيت بها السائق ، وأرشدته إلى مكان محلنا ثم قلت لها :

ـــ إذا أذّن المؤذن لصلاة المغرب ولم تعودي أعرف أنك أخفقت في مهمتك . قالت :

ـــ اسكت يا رجل ، أنا ما عرفت الإخفاق طوال عمري لأعرفه الآن . ولوّحت لي بيدها .

كنت أعجب بزوجة أخي هذه كثيراً ، كانت تدير بيتنا على أكمل وجه ، فلا تبخس أحداً حقه . ولكن لم يخطر ببالي أبداً أنها واثقة بنفسها إلى هذا الحد ، أي إلى حد تجعل فيه أخويَّ يغلقان المحل ويتبعانها إلى حيث تريد . كانت على عكس زوجة أخي أحمد تماماً فقد كانت هذه ضعيفة الشخصية لا تستطيع أن تفرض رأيها في شيء حتى على أولادها . لا شك أن هذا التفاوت بين الشخصيتين جعل الأمور في بيتنا تسير في سلام ووئام ، فلا نعرف الخلافات التي تحدث عادة بين الأسر التي تسكن في بيت واحد .

بعد أن توارت العربة عدت إلى البيت، شمرت ألبستي وخلعت حذائي، ورحت أشطف باحة الدار، وأسقي أحواض الزرع، وأرشها بالماء لتبدو زاهية جميلة، ثم أتيت بالكراسي ووضعتها حول البحرة، ثم دخلت المطبخ لأرى هل بإمكاني أن أعد القهوة فوجدت أن الرجل الطيب الخواجة يوسف رعاه الله وأكرمه، قد ترك لنا بقية منها مع الدلَّة والفناجين والصينية، فأشعلت شيئاً من الفحم في الموقد ووضعت عليه الدلَّة، ما كدت أنتهي من ذلك حتى سمعت الباب يطرق، فخفق قلبي فرحاً لأنني أيقنت أن زوجة أخي قد نجحت في مهمتها. ففتحت الباب فإذا هي تقول لي:

ـــ قبّل يدي أخويك فهاهما قد جاءا ليباركا لك بالبيت، فعلت ما أمرتني به، فإذا أخي الكبير يعانقني ويقبلني ويقول لي:

ـــ كيف تجرؤ أن تقول لأختك الكبيرة أنني طردتك من البيت؟ قلت لك اذهب من أمامي ولا ترني وجهك. وأنا أقصد في تلك اللحظة فقط، لأنني خشيت أن أفرغ عليك جام غضبي كله. قالت زوجة أخي:

ـــ عفا الله عما مضى، ادخلوا الآن لتروا تلك التحفة التي لا مثيل لها. دخلنا إلى باحة الدار، تلفت أخي يميناً ويساراً ثم قال لزوجته:

ـــ إنك والله لم تبالغي أبداً يا أم محمد. حقاً إنه لبيت رائع، والتفت إلي وقال:

ـــ هات أرني العقد ليطمئن قلبي.

ناولته العقد، وجلسنا على الكراسي حول البحرة فراح يقرأه بإمعان بينما

قمت أنا ودخلت المطبخ لأعد القهوة، ثم صببتها بالفناجين وجئت بها، قال أخي:

ـــ عقد سليم لا غبار عليه أبداً. الآن أقول لك بارك الله لك به يا أخي يا حاج صالح. وقالت زوجة أخي: هذا كله من رضا الوالدين. قلت:

ـــ أوَتعتقدين أن أمي راضية عني؟ قالت:

ـــ طبعاً يا ابني، لو لم تكن راضية لما وفقك الله هذا التوفيق. قال أخي أحمد:

ـــ هذا البيت والله كمقصف جميل، ما رأيكم يا جماعة أن نغلق المحل ونفتح هنا مقهى، أؤكد لكم أنه سيؤمه أكثر أهل الشام، وسنربح منه أكثر من المحل، ضحكنا كلنا ثم قال أخي عبد الصمد:

ـــ ستكون نكتة يتفكه بها أهل الشام طويلاً. سيقولون: أي زمن هذا!... لقد أصبح أولاد المفتي الحاج محمد جلبي الداغستاني قهوجية. وضحكنا كلنا.

ولما رأى أخواي الدار البرّانية ازداد عجبهما حتى قال أخي أحمد:

ـــ مسكين هذا الرجل صاحب هذا البيت كيف باع هذا كله بأربعين ليرة فقط، إنني والله لأحزن عليه!.. قلت:

ـــ ماذا يستطيع أن يفعل؟ لقد ظل البيت معروضاً للبيع شهراً كاملاً ينتظر المشترين فلم يفتح الله عليه بواحد منهم، وكان مضطراً أن يسافر لأن نصف أسرته أي أولاده الذكور قد أصبحوا في أمريكا، والنصف الآخر أي

زوجه وبناته في بيروت ينتظرون مجيئه قبل أن تسافر الباخرة. والله لو كان معي نقود أكثر لدفعتها إليه، لكنني شعرت أنه كان راضياً الرضا كله، وقد بارك لي من أعماق قلبه، وأوصاني خيراً بهذا البيت العزيز عليه، مما جعلني مرتاح الضمير. وقد فاتني أيضاً أن أريكم بعض المفروشات الخشبية التي اشتريناها منه، تعالوا معي، وأخذتهم إلى أحد المخادع وأريتهم السرر والأرائك والصناديق المكوّمة فيه. قالت زوجة أخي:

ـــ إن هذه الأشياء كلها جيدة جداً، وقد تكفي وحدها لفرش هذا البيت الكبير. سأذهب غداً إلى المحل وأنتقي بعض الأقمشة التي تصلح للمفروشات والبرادي، وسآتي مع صالح إلى هنا، لا بد أنه يوجد في حيّ الصالحية بعض المنجدين، أريد واحداً للفُرش وآخر للبرادي، وبعد أسبوع واحد، إن شاء الله، ستجد بيتك يا صالح مفروشاً على أحسن ما يكون. قلت:

ـــ لا حرمني الله منك يا أختي الكبيرة، قالت:

ـــ ليكن في علمك أن الأسرة كلها ستأتي يوم الجمعة من كل أسبوع تمضي اليوم بكامله هنا، وعندما تغلق المدارس سنمضي الصيف كله في بيتك هذا، قلت:

أرجوك يا أختي الكبيرة لا تقولي بيتكَ، قولي بيتنا جميعاً. قال أخي عبد الصمد:

ـــ بارك الله فيك يا حاج صالح. ألا ترون أننا قد تأخرنا عن المحل،

والعربة ما تزال واقفة في انتظارنا. عندئذٍ قمنا جميعاً وانحشرنا في العربة التي أخذت طريقها نحو دمشق، وكنت أشعر أنني على غاية من السعادة والرضا.

• وتقول أمي:

ـــ نهض جدي وهو يقول: غداً سأفاجئكم بأحداث لم تخطر لكم على بال.

* * *

١٤

• قالت أمي :

ـــ حين التأم شملنا أذكر أن حديث جدي كان يدور ليلتئذ حول زوجة أخيه عبد الصمد ، وكان يناديها بأختي الكبيرة وتكنى بأم محمد قال :

ـــ كانت أختي الكبيرة أم محمد امرأة نادرة حقاً ، بارعة في كل شيء ، ما تكاد تقتنع بفكرة حتى تقوم بتنفيذها على أكمل وجه . قالت ونحن نتناول طعام الفطور :

ـــ بعد قليل ستجدونني عندكم في المحل ، لأنتقي منه ما يلزمنا من أقمشة لفرش بيت الصالحية . قال أخي عبد الصمد :

ـــ ولماذا أنت مستعجلة إلى هذا الحد ؟ قالت :

ـــ ولماذا نؤجل ما نستطيع أن نفعله اليوم إلى الغد ؟ اطمئن لن أكلفكم سوى أجرة المنجدين وهي زهيدة جداً ، وربما احتجنا إلى بعض الصوف أو القطن فقط .

• قال أخي أحمد :

ـــ أوَتعتقدين يا أم محمد أن الأقمشة التي ستأخذينها من هذا المحل قد جاءتنا صدقة لوجه الله تعالى ؟ ألم ندفع أثمانها ؟ قالت ضاحكة :

ـــ لقد أصبحت الآن من ممتلكاتنا جميعاً ، أي لن ندفع لها ثمناً وسيعوِّضكم الله خيراً منها . قال أخي عبد الصمد :

ـــ والفُرش ، واللحف ، والطراريح ، وأدوات المطبخ ، و ، و ، من أين ستأتين بها ؟ قالت :

ـــ ولا يهمك ، عندنا كثير منها ، ألا تذكر عندما فرشنا بيتنا كنا أعددنا للضيوف غرفة حشرنا فيها كثيراً من الفرش واللحف والوسائد ، لكن لم يأتنا ضيف واحد لينام عليها ، كنت أكوِّمها في غرفة النصيَّة . ومنذ أصبح صالح ينام في غرفة النصيَّة ضقت بها ، إنها كالهم على القلب مبعثرة في الغرف كلها ، وقد فكرت ذات يوم ببيعها ، وأشكر الله أنني لم أفعل ، فها نحن في أشد الحاجة إليها . بعد وصولنا إلى المحل بقليل جاءت أختي الكبيرة ، وراحت تنتقي البرادي ووجوهاً للفرش والحشايا والمساند ، حتى قال لها أخي عبد الصمد :

ـــ كفى يا أم محمد ، على هذا المنوال سيفرغ المحل من البضاعة ، ضحكت وقالت :

ـــ صلّ على النبي ، لقد أصبحت هذه الأشياء قديمة ولن ينتقيها أحد من الزبائن وسيعوِّضكم الله خيراً منها . تعال يا ابني يا صالح احمل هذا كله إلى بيتنا .

ومن هناك سنذهب إلى بيت الصالحية، ولن يعود صالح إليكم إلّا في حدود الظهر. قال أخي أحمد:

ــ على خير إن شاء الله يا أم محمد. وتحوّل أخي عبد الصمد دون أن ينبس بكلمة، كان لزوجه عليه تأثير كبير.

حملت ما انتقته أختي الكبيرة كله، ولم يكن قليلاً ورجعنا إلى بيتنا فإذا كومة كبيرة في أرض الديار من الفرش واللحف والبسط، وبعض أدوات المطبخ والمصابيح أيضاً.

• قالت لي:

ــ كيف سننقل هذا كله إلى الصالحية؟ قلت:

ــ ليس أمامنا سوى أن نستأجر طنبراً لينقل هذه الأشياء، وعربة لتنقلنا نحن.

• قالت:

ــ أرني همتك إذاً. بعد قليل كان الطنبر والعربة أمام الباب، وضعنا هذه الأشياء في الطنبر، وبعضاً منها في العربة، لا سيما التي يخشى عليها من الكسر كالمصابيح مثلاً.

وصلنا بيت الصالحية ونقلنا إليه ما كان في الطنبر والعربة، ثم رحت أبحث عن المنجدين. بعد قليل عثرت على اثنين منهما، أحدهما للبرادي، والآخر للفرش والحشايا. طلبت منهما أم محمد أن يعملا وفق ذوقها، ثم أرشدتهما إلى ما تريد، وأصرّت عليهما أن ينجزا ما طلبته منهما صباح يوم

الجمعة القادم، أي بعد أربعة أيام فقط. فوافقا على طلبها لأنها أجزلت لهما العطاء.

يوم الجمعة ذهبنا إلى ركوب الخيل أنا وأخواي وولداهما محمد ومصطفى اللذان بدءا يتعلمان الركوب منذ فترة طويلة. ولما انتهينا من الركوب جئنا إلى البيت.

كدت لا أصدق ما ترى عيناي... إن زوجتيّ أخويّ وبناتهما الأربع قد نظفن البيت ووضعن المفروشات في أماكنها وعلقن البرادي، ثم هيأن مائدة الطعام في أرض الديار لنستمتع في أثناء الأكل بمرأى الحديقة، والنهر، والناعورة، والبحرة.

• قالت أختي الكبيرة:

ــ قبل أن نبدأ الأكل، تعالوا معي لأريكم هذا المخدع كم أصبح جميلاً بعدما فُرش.

كان المخدع الذي على يمين الليوان واسعاً، كأنه صالة كبيرة، في صدره شبابيك تطل على الحديقة، وعن يساره شبابيك تطل على أرض الديار. وقد صُفّت فيه الأرائك بعد أن نُجدت لها الحشايا والمساند، وقد كسيت كلها بقماش الدامسكو الزاهي الألوان، وأسدلت الستائر على الشبابيك وكان لونها يتفق مع ألوان الفرش، وقد مُدَّ على الأرض بساط عجمي ذو ألوان منسجمة لا أدري من أين جاءت به أم محمد، وفي زاويتين في صدر المخدع وُضع صندوقان من خشب الجوز الأسود المطعم بالصدف اللمّاع، وفوق كل صندوق وُضع مصباح أنيق.

• قالت أختي الكبيرة :

ــ هذا أجمل المخادع وأوسعها ، وجدت أنه لا يجوز أن يستأثر به واحد منا بمفرده لذا جعلت منه غرفة جلوس تتسع لنا جميعاً ، ونستطيع أيضاً أن نستقبل فيه ضيوفنا . أما بقية المخادع فقد وضعت فيها الأسرّة والفرش واللحف لتكون جاهزة إذا شئنا أن نمضي هنا فصل الصيف .

قال محمد ابن أخي عبد الصمد ، وكان فتى ذكياً خفيف الدم يحب النكتة موجهاً كلامه لأمه :

ــ ألا يوجد هنا يا أمي نصيَّة من أجل أن ينام فيها عمي صالح ؟.

قالت :

ــ اخرس يا ولد ، قطع الله لسانك الطويل ما أوقحك ، لقد هيأت لعمك صالح مخدعاً للنوم يليق بعريس أمير .

جلسنا حول المائدة ، ورحنا نلتهم الرز بالفول والفول المُقلَّى مع البصل الأخضر والطرخون واللبن بشهية جعلتنا لا نفكر إلّا بما نأكل دون أن نتحدث بكلمة واحدة ، كنا نشعر بجوع شديد بعد ركوب الخيل . بعد أن انتهينا من الطعام جلسنا حول البحرة نشرب القهوة . قالت أختي الكبيرة :

ــ جزاك الله خيراً يا ابني يا صالح على شرائك هذا البيت . لقد جعلت لحياتنا طعماً حلواً . مساكين نحن النساء والأولاد ، وبخاصة البنات ، لقد مضى على وجودنا في دمشق أكثر من عشر سنوات ولم يسبق لنا أن رأينا هذه الأحياء الجميلة القائمة على سفح جبل قاسيون ، لتذكرنا على الأقل ببلادنا

داغستان . أما أنتم الرجال فكنتم تذهبون كل يوم جمعة لتركبوا الخيل ثم تتنزهون في هذه المرابع الجميلة ، ونظل نحن النساء ننتظر مجيئكم في بيتنا المغم المكرب . قال أخي عبد الصمد :

ـــ سبحان الله لا شيء يرضي النساء!. الآن أصبحت ترين بيتنا مغماً ، مكرباً ، وكنت فيما مضى ترينه جميلاً ، بل وتعتزين به أيضاً . قالت :

ـــ أراه الآن هكذا بالنسبة إلى هذا البيت ، وأقسم أنك أنت أيضاً تراه كذلك ، ولكنك ككل الرجال تحب المكابرة بالمحسوس . قال أخي :

ـــ لاأطلب من ربي سوى أن يعينني عليك ، أنت من يستطيع أن يفحمك يا امرأة ..؟

ضحكنا كلنا لهذا الحوار الذي دار بين أخي الكبير وزوجه . ثم قالت أم مصطفى زوجة أخي أحمد :

ـــ أتدرون ماذا ينقص هذا البيت ؟ سألتها قائلاً :

ـــ وماذا ينقصه ؟ قالت :

ـــ تنقصه عروس تتمايل فيه . قلت لها :

ـــ ولمن تريدين العروس ؟ قالت :

ـــ أريدها لك طبعاً أو تحسبني أريدها لأحد أخويك ألتأتنا بضرة آخر العمر ؟ قلت :

ـــ أعوذ بالله أن أفكر بالزواج قبل أن أفي ديني كله ، ثم أجمع من المال

ما يكفي تكاليف السفر إلى داغستان لأرى أمي. أما الآن فلا أفكر بالزواج مطلقاً.

لقد استدنت مرة لأشتري هذا البيت فكان جزائي لطمة على خدي الأيسر لن أنسى طعمها أبداً، أو تريدنني أن أستدين لأتزوج وآخذ أيضاً لطمة على خدي الأيمن؟ لا، وألف لا يا ستي أغناني الله. قال أخي عبد الصمد:

ـــ ألم تنسَ يا حاج صالح هذه اللطمة التي جاءت عن سوء تفاهم إلى الآن؟

ألم نمحها يا أخي بقبلة؟ قلت:

ـــ لقد محوناها، ولن أذكرها بعد الآن أبداً.

• قالت أختي الكبيرة:

ـــ إن زواج صالح سيكون عسيراً جداً. قال أخي أحمد:

ـــ ولماذا هذا العسر؟ قولي إن مع العسر يسرا. قالت:

ـــ قلت مرة لصالح لقد كبرت يا ابني وآن أوان زواجك فقال لي:

ـــ إذا وجدت لي فتاةً تشبه أمي سأتزوجها فوراً. قال أخي أحمد:

ـــ إذا تمسكت بهذا الرأي يا أخونا ستنتظر طويلاً، لأن جمال أمك كان نادراً. قلت:

ـــ سأتذرّع إذن منذ الآن بالصبر الجميل. قالت أختي الكبيرة:

ـــ ولا يهمك يا صالح سأتحرى منذ الآن عن تلك التي تشبه أمك، ولا بد أن أجدها إن شاء الله. قلت:

ـــ لا حرمني الله منك يا أختي الكبيرة.

كنت أشعر بفرحة عارمة وأنا أرى أسرتنا جميعها سعيدة مبتهجة لا سيما أولاد أخويّ وهم يمرحون في الحدائق وعلى ضفاف النهر، ولكن لا بد أن يعقب تلك الفرحة غصة في الصدر، لقد دفعت الثمن غالياً جداً. كان يجب علي أن أكون أول هذا الصيف في بلدي داغستان وفي أحضان أمي، لقد بعد تحقيق هذا الحلم الجميل سنين طويلة!.. يجب أن أفي ديني أولاً، ثم أبدأ بجمع تكاليف السفر، ولا أدري كم سيستغرق هذا من الوقت. أيقظني من هواجسي هذه صوت أخي عبد الصمد وهو يقول:

ـــ لقد أوشكت الشمس أن تغيب فيجب أن نتهيأ للرجوع إلى بيتنا، ولكن كيف نأتي بعربة لتنقل النساء؟ قلت له:

ـــ لا عليك يا أخي لقد احتطت للأمر، واشترطت على سائق العربة الذي أتى بهن أن يعود قبل الغروب لينقلهن إلى دمشق، ولم أدفع له الأجرة خشية أن يخلّ بالشرط. قال أخي:

ـــ لقد أصبحت حقاً تعرف كيف تحتاط، فلا يخشى عليك أبداً، سندفع له الأجرتين معاً.

• قالت أمي:

ـــ وينهض جدي وهو يقول:

ـــ حسبكم اليوم هذا القدر من الحكاية، وسنعود إليها غداً إن شاء الله.

* * *

١٥

• قالت أمي :

ـــ بدأ جدي حديثه قائلاً :

ـــ لقد مضى من عمري سنتان ، وأنا أقتر على نفسي وأجمع القرش فوق القرش حتى وفيت دين أبي قاسم الصالحاني كله . لقد فاتني أن أقول لكم إنني اشتريت حصاناً قبل أن أفي الدين ، وكان ذاك بفضل عمي أبي قاسم أيضاً ، لقد لعب بعقلي ، وليس أبرع منه في اللعب بالعقول كما تعلمون . قال لي ذات مرة وكنت قد دعوته مع ولديه لتناول العشاء في بيت الصالحية الذي كان هو واسطة شرائه ليرى البيت بعد أن تم فرشه . لقد أعجب أبو قاسم وولداه بالمفروشات جداً . ثم قال لي أبو قاسم :

ـــ لقد شكوت إلينا مرة أنك أصبحت بعد وفاة أبيك تنام في بيتكم في باب البريد في نصية ضيقة تغم القلب .

• قلت :

ـــ وما أزال فيها إلى الآن . قال أبو قاسم :

ـــ أيجوز يا ابني أن تملك هذا البيت الكبير الواسع الذي يشرح الصدر وتنام في نصيَّة تغم الصدر ؟ قلت :

وماذا تريدني أن أفعل ؟ إذا أردت أن أنام هنا كل يوم ، سيكلفني هذا غالياً جداً وسيتعبني أيضاً ، لأنني سأضطر أن أستأجر عربة لتحملني كل مساء إلى هنا ، وفي الصباح سأضطر أن أذهب إلى المحل سيراً على الأقدام والمسافة ليست قريبة ، قال :

ـــ ألم يخطر ببالك أن تشتري حصاناً وأنت من هواة ركوب الخيل ؟ قلت :

ـــ إن من أمنياتي المفضلة أن أملك حصاناً ، ولكنني لا أملك مالاً لأشتري الحصان !.. قال أبو قاسم :

ـــ اسمع ما سأقوله لك ، إن الحصان الفتيَّ الجيد لا يتجاوز ثمنه الآن ثلاث ليرات ذهبية ، وهذا الحصان موجود عندي ، وسأبيعك إياه اليوم إذا شئت .

كان أبو قاسم يربي بعض الخيول في بستانه ويتاجر بها ، قلت :

ـــ أوَيجوز لي أن أستدين أيضاً قبل أن أفي ديني ؟ قال :

ـــ افرض يا ابني أنك استدنت مني عشرين ليرة وليس سبع عشرة ليرة . ألم أقل لك مراراً إنني آمن على نقودي عندما تكون في ذمتك أكثر مما إذا كانت في صندوقي معرضة للسرقة في كل حين ، قلت :

ـــ أشكرك ياعمي أبا قاسم على ثقتك بي ولا حرمني الله منك، ولكنني لا أستطيع أن أعدك قبل أن أستشير أخويَّ كي لا أقع فيما وقعت فيه عندما اشتريت البيت.

• قال:

ـــ لن أبيع الحصان حتى آخذ منك الجواب.

ولما كان اليوم الثاني عرضت الأمر على أخويَّ، ورغبتي في أن أنام في بيت الصالحية. قال أخي عبد الصمد متململاً:

ـــ أوَسنعود إلى الدَّيْن أيضاً؟... فرحت أحكي له ما قاله لي أبو قاسم، فكَّر قليلاً ثم قال:

ـــ ما دام المحذور قد وقع فما الفارق إذا استدنت سبع عشرة ليرة أو عشرين ومن الرجل نفسه. لا شك أن أبا قاسم يريد لك الخير والنصح، والله لو كنت أملك ثمن هذا الحصان لاشتريته لك، ولكن أنت تعرف أننا اشترينا بكل ما نملك بضاعة للموسم القادم، ولم يبق معنا إلّا ما يكفي لمصروف البيت. ولكن إيّاك أن تشتري الحصان قبل أن أراه وأفحصه. وكان لأخي عبد الصمد خبرة في الخيول اكتسبها من مروضي الخيول في داغستان.

• قلت:

ـــ سترى الحصان يوم الجمعة القادم عندما نذهب إلى ركوب الخيل.

ثم قال لي:

ـــ لا تنسَ أن الحصان يحتاج إلى اسطبل. قلت:

ـــ يوجد في بيت الصالحية في آخر حديقة البرّاني غرفة صغيرة ربما كانت أعدت لخادم، أو للجنائني يمكن أن نحولها إلى اسطبل. قال:

ـــ لم يعد هناك أي مشكلة. قال أخي أحمد:

ـــ أجد من الضروري أن ينام أحد في بيت الصالحية، لا سيما بعد أن فرش كي لا تتعرض مفروشاته إلى السرقة، قلت:

ـــ يقولون إن تلك المنطقة آمنة جداً، ولكن الحذر ضروري. ثم قال لي:

ـــ أهكذا إذن يا صالح ستفترق عنا قبل الأوان، أي قبل أن تتزوج. قلت:

ـــ معاذ الله، لن أفترق عنكم إلّا في ميعاد النوم فقط. سآتي كل يوم صباحاً إلى بيتنا لأتناول معكم طعام الفطور كما هي عادتنا، ثم نعود معاً من المحل إلى البيت لنتعشى. بعدئذٍ أركب حصاني، وأذهب إلى بيت الصالحية لأنام فيه.

• قال:

ـــ لقد طمنتني.. لأن فراقك يصعب علينا جميعاً.

يوم الجمعة ذهبنا بعد أن انتهينا من ركوب الخيل إلى بستان أبي قاسم، وتعرَّف أخواي عليه وعلى أولاده. ثم شكره أخي لاهتمامه بي. ثم جاء أبو قاسم بالحصان فإذا هو حصان جميل جداً أسود محجَّل، وذو صبحة بيضاء، وذيل طويل. فحصه أخي عبد الصمد فحصاً دقيقاً، فأعجبه كثيراً ووافق على

شرائه ، ثم دعا أبا قاسم وولديه إلى الغداء عندنا ، وكانت لفتة لطيفة من أخي عبد الصمد تجاه أصدقائي سررت لها كثيراً . ثم سألت أخي ونحن في الطريق :

ـــ وماذا سنطعم ضيوفنا يا ترى؟ قال :

ـــ لقد أوصت لنا أم محمد على أكلة صفيحة ، وفطائر بالجبن عند أحسن فرّان في باب البريد مشهور في إعدادها .

بعد قليل وصلت أمُّ محمد مع بقية الأسرة ومعها الصفيحة والفطائر والقطائف العصافيري أيضاً .

ـــ بدأت بنات أخي في إعداد المائدة في الليوان . بينما كنا نحن الرجال نجلس في الحديقة نستمتع بهوائها الناعم وظلالها الوارفة .

بعد أن انتهينا من تناول الغداء في الليوان ، انتقلنا إلى المخدع الكبير لنشرب فيه القهوة . ويدور الحديث في أثناء شرب القهوة عن الثورة في داغستان ، لأن أبا قاسم سمع إمام الجامع بعد صلاة الجمعة يطلب من المصلين أن يدعوا بالنصر للشيخ شامل زعيم الثورة في داغستان الذي يحارب الامبراطورية الروسية وينتصر عليها بالشجاعة وقوة الإيمان ، على الرغم من الفارق الكبير في العدد والعتاد بين روسيا وداغستان . وراح أخي عبد الصمد يحدث أبا قاسم بكثير من الفخر والاعتزاز عن الثورة الداغستانية ، وعن الشيخ شامل ذلك الزعيم الشاب الذي عرف بشجاعته وإقدامه ، وحزمه وتقواه وعدله فدانت له داغستان كلها ، واستطاع أن يوحِّد قومياتها الكثيرة تحت لواء واحد مما أربك الروس كثيراً ، وكانت تبدو الدهشة على وجه أبي قاسم وهو يستمع إلى أخي يحدثه عن فروسية مواطنيه الداغستانيين عندما يحاربون في الجبال الشامخة ويردون الجيوش الروسية على أعقابها .

كنت أستمع إلى هذا الحديث دون أن أشارك فيه، وقلبي يعتصر حزناً، لأنني كنت أؤمن بما كان يقوله لي أبي ونحن في مكة المكرمة عندما سألته عن الثورة في داغستان قال:

ـــ هذه الثورة يا بني مصيرها الإخفاق لا محالة، لأن داغستان لا تستطيع الانتصار على الامبراطورية الروسية ما لم تدعمها دولة كبيرة من نفس المنطقة كتركيا مثلاً، وقد تخلت عنا تركيا، في مثل هذه الحالة يجب علينا أن نحكّم العقل، ونتخلى عن العواطف، ولا نؤخذ بهذه الانتصارات الآنيّة، بل يجب علينا أن نسعى للصلح مع الروس ضمن شروط تضمن لنا حريتنا الدينية، وسيادتنا في أوطاننا، وأذكر أن أبي كان يردد بلوعة وأسى:

ـــ يا ضياعك يا بلدي يا داغستان، ويا أسفي على فرسانك الشجعان يموتون سدىً.

وتمضي السنون، والثورة في داغستان تزداد اشتعالاً ويبدأ اليأس يتسرب إلى نفسي من لقاء أمي يوماً فيوماً!.. لا سيما بعد أن علمت أن حدود داغستان أصبحت تقريباً مغلقة لأن الروس يضيقون عليها الحصار كي يقطعوا عنها الإمدادات التي قد تأتيها من الخارج.

لقد أصبح المال موفوراً لدي، ولكن ما الفائدة منه ما دمت لا أستطيع السفر والحرب قائمة والحدود مغلقة؟ وكان أفراد أسرتنا يسألونني بين حين وحين لماذا أبدو مهموماً كئيباً قلّما أتحدث أو أضحك كأنهم لا يعرفون أسباب همي وتعاستي. وكثيراً ما كنت ألوم نفسي لأنني اشتريت هذا البيت ولم أذهب إلى داغستان قبل أن تشتد الثورة إلى هذا الحد وتتأزم الأمور. دائماً أسائل نفسي ترى ما هي أخبار أمي؟... هل بدأت تشيخ، وكم لديها من

الأولاد، وهل تعيش في يسر أم في ضيق؟ وهل تفكر فيَّ ياترى كما أفكر فيها؟.. لا شك أنها تفكر فيَّ وتلومني أيضاً لأنني قصَّرت في حقها. كان بإمكاني أن أذهب إليها أما هي فليس بإمكانها أن تأتي إليَّ.

جاء فصل الصيف وانتقلت أسرتنا إلى بيت الصالحية. لكن أسرتنا تقلصت كثيراً عما كانت عليه وفقدت كثيراً من أنسها وبهجتها، لأن بنات أخويَّ الأربع قد تزوجن كلهن خلال هذا الشتاء الواحدة تلو الأخرى.

سألنا جدي يومئذٍ باستغراب شديد:

ـــ كيف كان ذلك يا جدي وبهذه السرعة. قال:

ـــ سأشرح لكم ذلك: لما احتدمت الثورة في داغستان بهذا الشكل العنيف وعمّت أرجاء داغستان كلها، أيقنّا أن عودة أسرتنا أصبحت صعبة جداً، بل مخاطرة قد لا تحمد عاقبتها، قد يستطيع الرجال الفرسان قطع المسافات الطويلة على خيولهم وتسلق الجبال لكن النساء والأولاد لا يستطيعون ذلك.

قالت أختي الكبيرة أم محمد في إحدى سهراتنا وكانت قد اغتنمت غياب البنات في المطبخ حين كن ينظفن الصحون بعد العشاء:

ـــ إن أكثر ما يشغل بالي الآن هو أمر زواج بناتنا قبل أن يعنسن، لقد تجاوزت كبراهن الثامنة عشرة من عمرها، وأصبح أمر زواجهن عسيراً جداً، ولولا أنهن جميلات ومؤدبات، ويتمتعن بسمعة حسنة لخشيت عليهن من العنوسة. والذي يخيفني أكثر أن أحداً من أبناء دمشق لا يتقدم الآن إلى خطبتهن، لأنه شاع في دمشق كلها أننا لا نزوج بناتنا من دمشقيين لأننا

نرغب بالعودة إلى بلادنا داغستان، ويصعب علينا أن ندع بناتنا يعشن بعيدات عنا وغريبات في هذا البلد. ثم أردفت قائلة:

ـــ ولكنني أعرف كيف سأتدبر هذا الأمر، وأرجو أن يوفقني الله.

لم نسألها كيف ستتدبر الأمر، لأن هذا سرّ من أسرارها الخاصة لا تحب أن تبوح به قبل أن تنفذه.

لم يمض شهر واحد على هذا الحديث حتى بدأ الخطّاب يتوافدون علينا، ورحنا ننتقي منهم من نجده كفؤاً لبناتنا، حتى تزوجن كلهن خلال بضعة شهور من شباب ينتمون إلى أسر دمشقية مرموقة، وأقيمت لهن أعراس فخمة دعي إليها نخبة من سيدات دمشق.

منذ ذلك الحين شعرنا أننا اندمجنا في المجتمع الدمشقي أكثر من ذي قبل، فقد أصبح أحماء وحموات بناتنا يدعوننا إلى ولائم في بيوتهم، وكنا ندعوهم أيضاً إلى ولائم في بيوتنا، وكانت أم محمد تفضل دائماً أن تقيم الولائم في فصل الربيع وفي بيت الصالحية لأنه يبدو أجمل وأفخم من بيتنا في باب البريد، وكان هذا البيت يحوز دائماً على إعجاب المدعوين ودهشتهم. وهكذا تمكنت أواصر الصداقة بيننا وبين عدد كبير من خيرة الدمشقيين الذين أصبحوا من أنسبائنا.

في إحدى سهراتنا العائلية استحلفنا أم محمد وأصرينا عليها أن تحكيَ لنا كيف استطاعت أن تزوج البنات كلهن في مدة وجيزة، هل لجأت إلى السحر والسحرة؟ أم ماذا فعلت؟ قالت أم محمد:

ـــ والله لم ألجأ إلى السحر أو السحرة لأنني لا أؤمن بهما ... ما هي إلّا بضع كلمات أسررتها في أذن معلمة الحمّام فكان لها هذا التأثير السريع كما رأيتم. قلنا لها:

ـــ وما هي هذه الكلمات الرائعات الساحرات؟ قالت:

ـــ كانت المعلمة تحبني وتحترمني كثيراً لأنني كنت أجزل لها العطاء. ذات مرة بعد أن انتهيت من حمّامي وجئت لأدفع الأجرة، وقد جعلتها هذه المرة مضاعفة، انحنيت عليها ووشوشتها:

ـــ إذا أراد أحد أن يخطب من بناتنا أرشديه إلى بيتنا لأننا عدلنا عن السفر إلى بلدنا داغستان وسنظل هنا في دمشق، ونحب أن نزوج بناتنا من دمشقيين. قالت:

ـــ يا ليتك قلت هذا الكلام من زمان بعيد، لأن كثيرات من زبوناتي المرموقات كن يطلبن مني أن أدلهن على بيتكم، عندما كن يشاهدن بناتكم في هذا الحمّام ليخطبنهن لأبنائهن فكنت أقول لهن:

ـــ لا تتعبن أنفسكن، لأن بيت الداغستاني لا يزوجون بناتهم من دمشقيين، لأنهم يرغبون في العودة إلى بلدهم داغستان، وهناك سيزوجون بناتهم، أما الآن فسأعرف كيف أتصرف. قلت لها:

ـــ كلما تزوجت بنت من بناتنا سأقدم لك هدية ثمينة تعجبك تماماً. قالت:

ـــ أنت يا ست أم محمد بيته وزيته. ثم قلت لها:

ـــ إيَّاك أن ترسلي إلينا من هم ليسوا أكفاء لبناتنا . ابتسمت ، وهزت رأسها ، وقالت :

ـــ أنا أعجبك يا ست أم محمد ، لست بحاجة إلى مثل هذه الوصية .

وقد استطاعت تلك المرأة القارحة أن تقوم بكل ما طلبته منها على أحسن وجه كما رأيتم . قال أخي أحمد :

ـــ خسارة كبرى يا امرأة أخي أن تُخلقي امرأة ، والله لو خلقت رجلاً لكنت مثل الشيخ شامل . ضحكنا كلنا . قال أخي عبد الصمد :

ـــ حلمك علينا يا أخي لا تطمعها فينا أكثر من اللازم . قالت أم محمد :

ـــ لا تخف يا أبا محمد أنا أعرف حدودي وأقف عندها .

• قالت أمي :

ـــ توقف جدي عن حديثه الماتع ، ثم نهض واقفاً وهو يقول :

ـــ تصبحون على خير يا أولادي ، أتمنى لكم أحلاماً حلوة ، وإلى الغد إن شاء الله .

* * *

١٦

• قالت أمي :

ـــ أذكر أن جدي بدأ حديثه تلك الليلة قائلاً :

ـــ كان أكثر ما يشغلنا في تلك الآونة هو أخبار الثورة في داغستان ، لقد أصبح لزعيمها الشيخ شامل صيت كبير في جميع البلاد الإسلامية ، وكانت هذه البلاد تتناقل أخبار الثورة ، وأخبار البطولات التي يقوم بها الداغستانيون من مريدي الشيخ شامل وأنصاره بكثير من الشوق واللهفة ، وقد تبلغ هذه الأخبار في كثير من الأحيان حداً يفوق الخيال ، وكان لا بد من مبالغات كثيرة ترافق عادة الأخبار التي يتناقلها الركبان من بلد لآخر .

جاء فصل الصيف ، وانتقلت أسرتنا كما هي العادة إلى بيت الصالحية .

وكانت العادة المتبعة في دمشق هي أن تزور الفتاة المتزوجة بيت أهلها مرة واحدة في الشهر وتمكث عندهم مع أولادها ثلاثة أيام ، وآخر يوم يأتي الزوج ليزور بيت حميه ويأخذ زوجه وأولاده إلى بيته وبهذه المناسبة كانت تقام

له وليمة، وأحياناً كانت ترافقه أمه أو أخواته. وكانت أختي الكبيرة قد خصصت أول ثلاثة أيام من كل أسبوع لزيارة واحدة من بناتنا، وعلى هذا المنوال كنا نقيم وليمة في كل أسبوع. مما كان يجعل أخي عبد الصمد يتململ من هذه التكاليف الباهظة فكانت زوجه تقول له:

ـــ سيرزقك الله من حيث لاتدري. على رأي المثل اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب أوتريدنا أن نجعل بناتنا أقل شأناً من مثيلاتهن الدمشقيات؟ـــ لا وألف لا لا والله لن يحدث هذا أبداً وأنا حية أرزق. فيسكت أخي على مضض.

ذات يوم من أيام ذاك الصيف اللاهب عدت من المحل باكراً قبل أذان المغرب بقليل فإذا أختي الكبيرة تتلقاني ضاحكة مستبشرة وهي تقول لي:

ـــ لقد وجدتها يا صالح. قلت:

ـــ وما هي التي وجدتها؟ قالت:

ـــ العروس التي تشبه أمك! قلت:

ـــ أصحيح ما تقولين؟ قالت:

ـــ اسأل أختك أم مصطفى. قالت أم مصطفى:

ـــ "والله يا صالح منذ رأيناها تبادلنا النظرات أنا وأختي أم محمد، ثم قلنا في آن واحد كأنها أم صالح حين تزوجت أمك من أبيك، وكانت على ما أظن في مثل عمر هذه الفتاة. قالت أم محمد:

ـــ منذ ثلاث سنوات وأنا أتحرى لك عن فتاة تشبه أمك ولو بعض

الشبه فلم أوفق... أما هذه فتشبهها كثيراً. الشعر الأسود الفاحم، البشرة الملساء الناصعة البياض، الوجه المستدير المكلثم، والعينان الواسعتان السوداوان المشعتان. لكنها أقول لك الصدق ليست في مثل طول أمك.

• قلت:

ـــ أهي قصيرة جداً؟ قالت أم محمد:

ـــ ليست قصيرة، ولكنها ليست فارعة الطول، طويلة العنق مثل أمك. قلت:

ـــ وأين رأيت تلك الفتاة؟ قالت:

ـــ ذهبت اليوم أنا وأختي أم مصطفى إلى حمّام العفيف القريب من بيتنا في الصالحية، وبينما كنا نخلع ثيابنا إذ دخلت هذه الفتاة مع امرأة نصف، وجلستا على مصطبة قريبة من المصطبة التي نجلس عليها، شعرت من ملامحهما أنهما ليستا من دمشق. تقدمت منهما وحييتهما، ثم قلت لهما نحن من بلاد الداغستان. قالتا:

بصوت واحد: من بلاد الشيخ شامل الله ينصره. قلت:

ـــ نعم، أنتما من أين؟ قالت الفتاة:

ـــ نحن من بلاد الكرج القريبة من داغستان، وقد هاجرنا إلى دمشق منذ ثلاث سنوات. وكانت الفتاة تتكلم اللغة العربية بطلاقة كما نتكلمها نحن وقد مضى على وجودنا في دمشق خمس عشرة سنة، يبدو أنها ذكية. ثم رحت أتحدث مع خالتها فهمت منها أن الفتاة يتيمة الأبوين وقد تبنتها خالتها التي لم

تنجب أولاداً، ثم نشبت في بلاد الكرج ثورة بين الإسلام والمسيحيين من سكانها بتحريض من الروس ذهب ضحيتها زوج هذه الخالة، فما كان منها إلّا أن باعت كل ما تملك من عقار وأثاث وانضمت إلى بعض المهاجرين من سكان بلدها الذين اختاروا دمشق ملجأً لهم. قلت لأختي أم محمد:

ـــ لقد انفتح قلبي لهذه الفتاة فمتى ستخطبينها لي؟ قالت:

ـــ غداً إن شئت.. لقد سألت خالة الفتاة عن بيتها فدلتني عليه وكأنها قد عرفت قصدي، إن بيتها في حيِّ المهاجرين قريب من بيتنا هذا في حيِّ الصالحية.

بعد مضي شهر واحد على هذا الحديث أصبح جدكم عريساً. وقد أقامت لي أسرتنا عرساً فخماً في بيت الصالحية كالأعراس الدمشقية، دعونا إليه عدداً كبيراً من جيراننا ومعارفنا في حيِّ باب البريد وفي حيِّ الصالحية كما دعونا إليه أنسباءنا الجدد كلهم. وقد أصر أبو قاسم أن يقيم لي «تلبيسة» في بيته، وعراضة تسير من بيته إلى بيتنا وأنا أتوسط العراضة، وحولي الشباب يرددون الأهازيج التي تقال عادة للعريس. ثم دخلت بيتنا مع أخويَّ فاستقبلتنا النساء بالزغاريد. ارتبكت عندما وجدتني أمام العروس، وشعرت بحاجة ملحَّة إلى البكاء. استطعت أن أتغلب عليها بجهد كبير. ما أصعب حين يتأرجح شعور الإنسان بين شعورين مضادين، شعور الفرح، وشعور الحزن فلا يعرف على أيهما يركز أكثر...

شعرت بفرحة عارمة حين وقع نظري على العروس فوجدتها تشبه أمي حقاً، فأحببت هذه الصبية التي ستصبح رفيقة عمري مدى الحياة.

كما شعرت بحزن أليم يعصر قلبي لأن أمي حُرمت من هذه الفرحة التي

تنتظرها الأمهات منذ يلدن أولادهن، ألححتُ على خالة زوجتي أن تسكن معنا لتستأنس بها زوجتي، فوافقت على ذلك، مما جعلني أطمئن على زوجتي في أثناء غيابي عن البيت.

لم يتغير شيء من نمط حياة أسرتنا بعد زواجي، ظلت أسرتنا تمضي يوم الجمعة من كل أسبوع في بيت الصالحية، ثم تنتقل إليه في شهور الصيف، وكثيراً ما كنت أقيم الولائم لأحماء بناتنا وحماواتهن لأخفف العبء ولو بعض الشيء عن أخويَّ. انسجمت زوجتي وخالتها مع أفراد أسرتنا كلهم. بعد سنة من زواجي رزقت بغلام سميته نجيباً هو والدكم حفظه الله لكم يا أولادي، ولم يمن الله علي بولد غيره فتعلقت به كثيراً، أصبحت أنتظر ميعاد الرجوع إلى البيت منذ أخرج منه.

بعدما يقرب من سنتين بعد زواجي دخل محلنا ذات صباح رجل عملاق يرتدي ألبسة كردية ألقى علينا السلام ثم سألنا:

ـــ أيكم صالح الداغستاني؟ قلت واقتربت منه:

ـــ أنا صالح الداغستاني. قال:

ـــ إن مولاي محافظ الحج سعيد باشا اليوسف يريد أن يراك الآن.

تبادلت أنا وأخواي نظرات متسائلة، ثم همس أخي عبد الصمد في أذني قائلاً:

ـــ أعرف أن أبانا كان صديقاً حميماً للباشا، فربما شاء الباشا أن يسند إليك وظيفة ما، فاعرف كيف تتصرف.

سرت مع الرجل العملاق إلى حيٍّ سوق ساروجة حيث يسكن الباشا. ثم دخلنا داراً رائعة في سعتها وطراز بنائها. قال لي الرجل:

ـــ انتظر هنا قليلاً ريثما أستأذن لك من الباشا. بعد قليل، عاد الرجل وقادني إلى قاعة كبيرة في صدرها أريكة جلس عليها الباشا، رجل ذو هيبة ووقار، شعرت أنه كان يتفحصني بنظرات ثاقبة منذ دخلت القاعة مما أربكني كثيراً، فلما صرت أمامه انحنيت وقبلت يده. قال:

ـــ أنت صالح ابن المفتي الحاج محمد جلبي؟ قلت:

ـــ نعم يا مولاي. قال:

ـــ رحم الله أباك كان صديقاً لي، وقد سمعت منه مرة أنه له ابناً اسمه صالح نال شهادة في علم الحساب، ومسك الدفاتر في سنٍ مبكرة جداً مما يدل على نبوغه في هذا العلم. قلت:

ـــ هو أنا يا مولاي، وما زلت أمارس هذه المهنة إلى الآن في محلنا التجاري. قال:

ـــ أحببت أن أُسند إليك وظيفة أمين صندوق الحج، لأنني أعرف أباك رجلاً شجاعاً ديّناً ذا مروءة ونبل، والابن سر أبيه كما يقولون. قلت:

ـــ أنا تحت أمرك، أطال الله عمر مولانا الباشا. قال:

ـــ ستمارس وظيفتك يا بني في أثناء شهور الحج أي أربعة شهور في السنة فقط، وسأخصص لك راتباً يرضيك، وستسافر معنا حين يبدأ موسم

الحج ، أي بعد شهر فقط ، وسيسافر معك هذه السنة أمين الصندوق السابق الذي أصبح عجوزاً يتعبه السفر ويضنيه ليدربك على وظيفتك .

• قلت :

ـــ سأكون إن شاء الله عند حسن ظن مولاي الباشا ... انصرفت من لدنه وأنا أشعر بالرضى والفرح يشوبه شيء من الضيق لأنني سأبتعد عن ابني وزوجتي وبيتي أربعة شهور من كل سنة ، وأنا هنا في دمشق لا أصدق متى ينتهي النهار لأعود إليهما لأنعم بالعيش معهما .

عدت إلى أخويّ وحدثتهما بما قاله لي الباشا فهنئاني على الوظيفة المرموقة وتمنيا لي النجاح فيها .

أما زوجتي فقد ساءها جداً أن أبتعد عنها أربعة شهور من كل سنة ، فراحت تحرضني على رفض الوظيفة مهما يكن وراءها من نفع ، ولما أفهمتها أنه لا يجوز لي أن أرفض هذه النعمة التي هبطت علي من السماء ، وقد تيسر لنا حياة أكثر بحبوحة ، ومستقبلاً مضموناً ، لا سيما ونحن لا نزال في أول الشباب في موسم العمل والعطاء ، فراحت تبكي وتصر علي أن آخذها معي مما حدا بخالتها المرأة الطيبة أن توبخها بعنف حتى سكتت ورضيت بما ليس منه بد ، ولكن على مضض كبير . مضى الشهر بسرعة عجيبة ، حزمت أمتعتي وذهبت إلى دار الباشا في الوقت المحدد ، ومن هناك أقلتنا العربات ، أنا وبعض الموظفين الذين يرافقون الباشا إلى ضاحية العسالي حيث يجتمع الحجاج ينتظرون انتهاء المراسم المتبعة ، ثم إطلاق المدافع إيذاناً بقيام الحج ، هناك عرّفني أحد أتباع الباشا على أمين الصندوق السابق الذي حللت محله ، فإذا هو رجل عجوز

وقور دمث شعرت بشيء من الحرج عندما تعرفت إليه لأنني سأحل محله، فما كان مني إلّا أن انحنيت على يده وقبلتها فربت على كتفي وقال لي:

ـــ بارك الله فيك يا بني وأعانك على هذه الوظيفة. وفي لحظة ارتفع ما كان بيننا من حرج، وأصبح الرجل ينظر إلى وكأنني أحد أولاده. بعد قليل جاء أحد الجنود وقال لنا:

ـــ يجب أن تستعدوا للركوب، لقد نقلنا الخزينة إلى التختروان وأوشك الحج على القيام.

دهشت حين عرفت أنني سأسافر في تختروان مثل الباشا تماماً. ابتسم أمين الصندوق السابق، وقال لي:

ـــ أما كنت تعرف أن وظيفتك هذه ذات شأن كبير، فأنت الموظف الوحيد الذي يسافر في تختروان مثل الباشا، لأن خزينة الحج ستكون في عهدتك، وسيحرس التختروان أيضاً ثلة من الجند منذ يخرج من دمشق حتى يصل مكة المكرمة حرصاً على الخزينة من مداهمة اللصوص.

منذ بدأنا المسير راح الموظف السابق يشرح لي كيف أتصرف ثم سلمني الدفاتر، والكشوفات ومفاتيح الصناديق وكان يحذرني ألّا أسلم أحداً شيئاً من المال ولو كان الباشا نفسه ما لم آخذ منه إيصالاً، ثم أحفظ هذه الإيصالات في مكان أمين.

ولما وصلنا إلى مكة راح يرافقني إلى بيوت شرفاء مكة لنسلمهم رواتبهم التي يبعث بها إليهم السلطان حامي الحرمين الشريفين، نبدأ بشريف مكة أي حاكم مكة ثم ببقية الأشراف، كانت الرواتب الكبيرة توضع في صناديق صغيرة

من الخشب المصقول وداخلها مبطن بقطيفة خضراء ثم تُصف فيها الليرات الذهبية، وكانت هذه الصناديق مختومة ومكتوب عليها أسماء أصحابها كنا نسلم لكل شريف صندوقه فيفك الختم ويعد الليرات ثم يكتب لنا إيصالاً بها وكنا نجمع هذه الإيصالات، ونرسلها إلى الباب العالي في القسطنطينية. أما الرواتب الصغيرة فكانت توضع في أكياس من المخمل.

أتصدقون يا أولادي أن جدكم قد بقي في هذه الوظيفة خمساً وعشرين سنة. لقد منّ الله علي وأكرمني كثيراً حين يسّر لي أن أزور بيته العتيق مدى هذه السنين الطويلة والآن سأقول لكم تصبحون على خير لأنني شعرت بالنعاس ربما أكثر منكم.

* * *

١٧

• قالت أمي :

ـــ كان جدي يحدثنا هذه الليلة وفي صوته نبرة حزينة قال :

ـــ كانت تمر الأيام والسنون متشابهة متماثلة فلا أشعر بمرورها .

كنت أمضي أربعة شهور من كل سنة في الحج ثم أعود إلى بلدي دمشق أكثر شوقاً ولهفة من ذي قبل ، وفي كل مرة كنت أخشى أن يفاجئني خبر سيئ ، وقد وقع ما كنت أخشاه .. لقد استجاب أخي عبد الصمد لدعوة ربه أثناء غيابي ، فحزنت عليه حزناً لا يقل عن حزني على أبي ، لأنني كنت أشعر نحوه شعور الابن نحو أبيه . الأمر الذي كان يعزيني بعض الشيء هو أنه كان راضياً عليَّ الرضا كله ، لا سيما حين دعوته إلى الحج ، وكان ذلك قبل رحيله بسنتين ، وكنت استأذنت الباشا أن آخذه معي في التختروان فأذن لي وقال :

ـــ كيف لا آذن لابن صديقي الحاج محمد جلبي ؟ هذه أول مرة أسمح لأمين الصندوق أن يصطحب معه أحد أقربائه ، فقلت :

ـــ لا حرمني الله من كرمك وعطفك يا سيدي الباشا .

كان أخي سعيداً جداً أثناء الحج فكنت أخدمه بنفسي وأُيسِّر له سبل الراحة ما استطعت ، فلما عاد من الحج كان يتحدث عني إلى أهله وأصدقائه فيقول :

ـــ لقد حججتُ حجة ملوكية بفضل أخي صالح . رحمه الله وأحسن إليه كم كان طيباً ، هذه هي يا أولادي سنَّة الكون ولا مفر لنا من الرضا بها .

وتمر السنون وتمر ونحن في غفلة من أمرنا ، أكاد لا أصدق أحياناً أن ابني الذي ولد منذ أمد قريب قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، ولو لم أر أنه أوشك أن يماثلني في الطول لما صدقت ذلك .

استأذنت الباشا ذات مرة أن يسمح لي أن أحمل معي بعض السلع الدمشقية وأبيعها للتجار في المدينة ومكة ، ثم أشتري مما يحمله الحجاج من سلع كالحرير الهندي ، والخزف الصيني وأبيعها في دمشق . فقال لي :

ـــ أسمح لك على شرط ألّا تمد يدك إلى مال الخزنة التي في عهدتك على أمل أن تأخذ الربح ثم تعيد مال الخزنة إلى الخزنة ، هذا لا يجوز قطعاً . قلت :

ـــ معاذ الله أن أفعلها يا سيدي الباشا . سأبيع وأشتري من مالي الخاص فقط . قال :

ـــ إن ثقتي بك عظيمة لا تخيب أبداً. أنا أعرف أن أكثر الموظفين الذين يتاجرون يفعلون ذلك دون أن يطلبوا الإذن مني، فكيف لا أسمح لك أنت وقد استأذنتني؟ لقد عادت علي هذه التجارة بأرباح عظيمة ما كنت لأحلم بها فاشتريت جارية صغيرة لتساعد زوجتي بأعمال البيت اسمها صباح، وكنت أغدق الهدايا على أفراد أسرتي كلهم.

كان أكثر ما يشغلني وأنا في الحج هو أن أتحرى عن الحجاج القفقاسيين في أوقات فراغي لأستقي منهم أخبار الثورة في داغستان، وبخاصة أخبار زعيمها الشيخ شامل. هذا الإنسان العملاق بجسده، وتفكيره، وإيمانه كما يقولون، لكم تمنيت أن أراه، كان يتصرف كما الأنبياء المرسلين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان أكثر شدة على أبنائه وأهل بيته وأقربائه منه على عامة الناس، وقد روى لي هؤلاء الحجاج أخباراً عن الشيخ شامل تشبه الأساطير. منها هذه الحادثة:

كان الشيخ شامل يقوم مع ثلة من جنوده بتفقد مواقع القتال في الجبال المشرفة على السهول التي تأتي منها الجيوش الروسية فإذا به يفاجأ بجيش كبير يجتاز السهل في الفجر الباكر، ويبدأ أفراد الجيش بتسلق الجبل الوعر الخالي من المجاهدين سوى الشيخ شامل والثلة الصغيرة من جنوده، ويقترح بعض الجنود أن ينسحبوا إلى حيث أكبر عدد من المجاهدين عندئذٍ يواجهون الجيش الروسي الكبير. وكان لا بد للجيش أن يمر بتلك الجبال ليصل إلى حيث يعسكر الداغستانيون. ولكن الشيخ شامل أصر أن يحارب الجيش الكبير بهذه الثلة الصغيرة من الجنود، قال ذلك لأنه كان يعرف مسالك جبال داغستان كما يعرف كفه. فليس أمام هذا الجيش الروسي سوى أن يسلك طريقاً واحدة ممهدة في

هذا الجبل تؤدي إلى فسحة في منتصفه تتفرع منها طرق كثيرة تؤدي إلى جبال أخرى حيث يعسكر الداغستانيون. وزّع الشيخ شامل جنوده القلائل وراء الصخور على طرفي الطريق الصاعدة في الجبل، وأمرهم أن يتذرعوا بالصبر ما استطاعوا فلا يطلقون النار حتى توشك طلائع الجيش أن تصل إلى آخر الطريق. فلما وصلت طلائع الجيش إلى آخر الطريق وقد استغرق هذا وقتاً طويلاً بدأ الشيخ شامل بإطلاق النار وتبعه جنوده وما هي إلّا بضع ثوانٍ حتى انهال الرصاص على الجيش كزخ المطر، وما هي إلّا فترة قصيرة حتى ظهر الإرتباك على الجيش الروسي حين سدت جثث القتلى الطريق على الصاعدين فما كان منهم إلّا أن ارتدوا على أعقابهم وكان عدد القتلى بين هؤلاء المرتدين أكثر من عدده بين الطلائع الصاعدة.

بمثل هذا الإقدام والشجاعة والمعرفة بأصول القيادة كان ينتصر الشيخ شامل على أعدائه.

ويقول جدي وقد سمعت حادثة أخرى من هؤلاء القفقاسيين كدت لا أصدقها لولا أنهم أكدوها لي:

ــ عندما طالت الحرب وتعب منها بعض الداغستانيين جاؤوا إلى الشيخ شامل يحاولون إقناعه بالاستسلام إلى الروس. فما كان من الشيخ شامل إلّا أن أصدر أمراً يقضي بجلد من يتحدث عن الاستسلام مئة جلدة في الساحة العامة أمام الناس. عندئذٍ لجأ طالبو الاستسلام إلى أم الشيخ شامل، وكانوا يقدرون مكانتها عند ابنها الذي ما كان ليرد لها طلباً يرجون منها أن تقنع ابنها بالاستسلام. قال الشيخ شامل لأمه عندما جاءت لتقنعه.

ــ ألم يبلغك الأمر الذي صدر في حق طالبي الاستسلام؟ قالت:

ـــ ولكنني أمك يا شامل ... قال :

ـــ أنت داغستانية قبل أن تكوني أم الشيخ شامل ، ولذا سيسري عليك ما يسري على كل داغستاني وداغستانية . ويأمر أن تحمل أمه إلى الساحة العامة ، ويسدل عليها غطاء ثم تجلد ... وقف الناس ذاهلين وهم يرون ما يرون ، ووقف بينهم الشيخ شامل أيضاً ، ولما جلدها الجلاد ثلاث جلدات قال الشيخ شامل للجلاد :

ـــ حسبك الآن ... سأتحمل أنا عن أمي السبع وتسعين جلدة الباقية ، وأمر أن تعاد أمه إلى بيتها ، وراح يتجرد من ثيابه ليجلد . وراح مريدوه وقادته يحاولون أن يثنوه عن عزمه ، فيقولوا له :

ـــ أنت الشيخ شامل زعيم الداغستان كلها الذي طبقت شهرته الآفاق تجلد في الساحة العامة أمام الناس ؟؟ أية فضيحة هذه بحق الداغستان كلها ؟؟

ولكن هيهات أن يتراجع الشيخ شامل عن رأيه . وراح الجلاد يجلده برفق فقال له :

ـــ أهكذا تجلد المذنبين ؟ هيا تجرد من ثيابك لأعلمك كيف يكون الجلد .

وراح يجلد الجلاد بقوة ، ثم يناوله السوط ويقول له :

ـــ هكذا يجب عليك أن تجلدني كما تجلد غيري من عامة الناس .

لا أدري هل هذه القصة حقيقية واقعة أم هي أسطورة من تلك الأساطير التي تحاك حول الأبطال؟ الله أعلم..

وقد رويت لي أيضاً قصة أخرى عن الشيخ شامل هي:

أسر الروس ابناً صغيراً للشيخ شامل أخذه القيصر إلى قصره، ورباه مع أولاده، وكان يحبه كثيراً، ولما كبر أرسله القيصر مع أولاده إلى المدرسة الحربية فتخرج منها ضابطاً، وتصادف أن أسر الشيخ شامل ثلاث أميرات جورجيات فطالب القيصر الشيخ شامل بالإفراج عنهن لقاء إفراج القيصر عن ابن الشيخ شامل، فرضي الشيخ بذلك وأخذ الأميرات إلى الحدود القائمة بين داغستان وروسيا ليسلمهن للروس، ويستلم ابنه. فلما رأى ابنه يرتدي ألبسة عسكرية قذف إليه بألبسة داغستانية وقال له:

ـــ إخلع ألبسة الأعداء في أرض الأعداء، والبس ألبستك القومية قبل أن تدخل أرض بلادك. ففعل الشاب ما أمر به أبوه، ثم أسرع نحو أبيه يقبل يديه ويتعانقان بحرارة وشوق. بعد فترة من عودته بدأ يدرك ما يعاني الداغستانيون من الفقر والحرب، فراح إلى أبيه ينصحه بالاستسلام إلى الروس لأن داغستان الصغيرة الفقيرة لا يمكن أن تنتصر على الامبراطورية الروسية العظيمة مهما طال أمد الحرب. فما كان من الشيخ شامل إلّا أن أمر بحبس ابنه لأنه يدعو إلى الاستسلام. ويظل الابن في السجن حتى يموت كمداً بعد ثلاث سنوات!!!...

بمثل هذا الإيمان القوي، والتضحية المثلى قاد الشيخ شامل ثورة الداغستان خمساً وعشرين سنة كاملة. كانت الثورة قد نشبت في الداغستان

قبل أن يتولى الشيخ شامل قيادتها بعدة سنوات ، ولكنها لم تشمل الداغستان كلها إلّا في عهده .

كنت أشعر يا أولادي باعتزاز كبير عندما أسمع الناس يكبرون الشيخ شامل ، وشجاعة مواطنيّ الداغستانيين ، وتضحياتهم المثلى في سبيل بلادهم . وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالألم يحز في نفسي لأنني كنت على يقين تام أن هذا كله سيؤول إلى إخفاق ذريع كما كان يعتقد أبي ، كان يقول :

ــ إن الصلح مع روسيا أسلم لبلادنا ، وأنفع من الحرب . لهذا السبب يا أولادي لم أفكر أن أشترك بالثورة . كنت أؤمن بآراء أبي وحدسه الصادق . لكن لم يخطر على بالي أبداً أن بلادي ستصمد أمام الامبراطورية الروسية هذه المدة الطويلة . ما تمنيت أن يكون أبي مخطئاً في تقديره كما تمنيت حينئذٍ .

أيمكن أن تقع المعجزة ؟؟ أيمكن أن يتراجع الروس ويطلبوا الصلح من داغستان ؟؟ داغستان الصغيرة الفقيرة ، الكبيرة الغنية بزعيمها وأبنائها ...

ولكن منذ زمن بعيد لم تقع على الأرض المعجزات !.

ورحت أحلم في يقظتي ومنامي فيما إذا وقعت المعجزة ماذا أنا فاعل ؟

أنا الآن في دمشق أعيش في بحبوحة ومركز كبير ، سأتخلى عن هذا كله بمنتهى الرضا وآخذ أسرتي الصغيرة وأهرع إلى بلدي إلى أحضان أمي ، ولا يهمني إذا عشت في بلدي على الكفاف ، سأكون غني النفس جداً ، غنياً بكبريائي ، بقناعتي ، باعتزازي بعلاقاتي الحميمة مع مواطني ...

هذا هو الغني الحقيقي يا أولادي ، الغنى الذي لا ينضب مهما امتد العمر . .

لننهي سهرتنا اليوم، ونحن نحلم أحلاماً جميلة.

* * *

١٨

• قالت أمي :

ـــ اجتمعنا حول جدي كما كانت عادتنا كل ليلة . قال والأسى يقطر من كل كلمة يفوه بها :

ـــ لما اقترب موسم الحج في تلك السنة أي في عام ١٨٥٩ كنت أجدني بشوق شديد إلى السفر لأجتمع بهؤلاء الحجاج القفقاسيين ليحدثوني عن ثورة الداغستان ، وعن زعيمها الشيخ شامل الذي كنت أعتز به وأكنُّ له إعجاباً كبيراً ، ولا أملُّ من الحديث عنه ، وعن مواطنيَّ الداغستانيين ، وكنت أحلم في يقظتي ومنامي بانتصار الداغستان .

بالمعجزة التي ستبهر العالم كله ...

ولكن مع الأسف الشديد كما قلت لكم منذ زمن بعيد لم تهبط على الأرض المعجزات !..

وبصوت حزين جداً قال:

ـــ لقد فشلت الثورة، واستسلم الشيخ شامل!..

فشهقنا كلنا واغرورقت عيوننا بالدموع...

ويُردف جدي قائلاً:

ـــ ولكن الشيخ شامل كان عظيماً في استسلامه، كما كان عظيماً في انتصاراته.

وكان أول من شهد له بذلك هم أعداؤه أنفسهم.

لقد أخذه الروس على حين غرة. كان في قريته «غونيب» مع مئتين من مريديه فقط، وكانت القرية حصينة جداً، محاطة بالجبال الشاهقة من أربعة أطرافها، ويبلغ الروس أن الشيخ في قريته، فيسرعون إليها ويضربون حولها حصاراً، ثم راحوا يتسلقون الجبال بسرعة هائلة، حتى قيل أن بعض الجبال الوعرة تسلقوها بواسطة السلالم، ثم هبطوا على القرية من أربعة أطرافها.

تلقى الشيخ شامل الخبر بثبات عجيب كما تقضي بذلك الرجولة الحقة. أراد جنوده أن يجاهدوا حتى الموت، فمنعهم بشدة، صعُب عليه أن يضحي بهم في معركة لا فائدة منها. وما كان منه إلّا أن قام وارتدى ثيابه، وتمنطق بسلاحه الكامل، وركب حصانه، واتجه بمفرده إلى حيث قيل له أن قائد الجيش الروسي الأمير «باریاتنسكي» يعسكر في منتصف الجبل الذي يقابل الشيخ.

فوجئ الأمير حين رأى الشيخ شامل يقف أمامه بقوامه الفارع، وألبسته المهيبة متمنطقاً سلاحه الكامل.

جلس الأمير على صخرة وراح يتأمل الشيخ شامل ملياً. ويظل الشيخ واقفاً أمامه متكئاً على سيفه، شامخ الرأس، بإباء وكبرياء، لا تعبر قسمات وجهه الجامدة عن شيء..

• قال الأمير:

ـــ عبثاً كانت كل جهودك، وكل جهادك يا شامل، ها أنت ذا تستسلم!...

• أجاب الشيخ شامل باتزان وهدوء:

ـــ كلا، لم تكن عبثاً جهودي أيها الأمير، وستبقى ذكراها خالدة في قلوب أبناء وطني. لقد جعل جهادي من أعداء كثيرين أخوة متحابين، ووحَّد قرى كثيرة كانت تتنازع فيما بينها، وجعلتُ من قوميات داغستانية متعددة شعباً داغستانياً واحداً، لقد غرست الشعور بحب الوطن، بحب داغستان واحدة في قلوب الداغستانيين جميعهم، هذا الشعور الوطني العظيم أخلفه لأحفادي. فهل تجد هذا كله شيئاً قليلاً؟؟...

سكت الأمير، ولم ينبس بكلمة.

ثم راح الأمير يملي شروط الاستسلام، والشيخ شامل صامت لا يعترض على شيء. كان يعرف أن المهزوم لا يحق له أن يعترض.

أخذ الروس أسيرهم إلى العاصمة «سان بطرسبورغ» وبقي فيها مدة، ثم نقلوه إلى بلدة «كالوجا» حيث بقي في الأسر إحدى عشرة سنة. وقد عامله

الروس معاملة جيدة تليق بزعيم شهم مثله . فلما طلب من الحكومة الروسية أن تسمح له بالذهاب إلى مكة المكرمة ليؤدي فريضة الحج أجابته إلى طلبه ، وكان ذلك عام ١٨٧٠ . سار الشيخ شامل إلى الديار المقدسة ، لكن لم تطل إقامته هناك سوى سنة واحدة . ففي عام ١٨٧١ لبى دعوة ربه ، وصعدت روحه الطاهرة إلى الملأ الأعلى راضية مطمئنة لأنه لم يمت في أرض الأعداء ، بل أكرمه الله تعالى كثيراً حين قدَّر عليه أن يموت في الديار المقدسة ، ويدفن في البلد الذي دفن فيه الرسول ﷺ وعدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم ، ورضي عن الشيخ شامل فقد كان شهماً شجاعاً مؤمناً صادقاً ، لا تأخذه في الحق لومة لائم .

أمران جعلا من داغستان سداً منيعاً أمام الروس هما : الجبال الشاهقة التي تحيط بها من كل جانب ، وطبيعة أهلها الشجعان ، الفرسان الأشاوس الذين ظلوا يتحملون ويلات الحرب سنين طويلة . ولو لم ينجح الروس بالاستيلاء على « غونيب » وأسر القائد الشيخ شامل لعلم الله إلى متى سيظل الداغستانيون يحاربون ، ويضحون ويبذلون في سبيل الوطن ، والدين ، والكرامة .

الحديث هذه الليلة أتعبني يا أولادي كثيراً ، لأنني أشعر بحزن عميق عندما أرويه ، لذا سأودعكم باكراً ، وأعدكم أن يكون حديث الغد ممتعاً ومفرحاً إن شاء الله .

* * *

١٩

• قالت أمي :

ـــ ابتدأ جدي حديثه ليلتئذٍ بصوت حنون ، ووجه مشرق قال :

ـــ بعد مضي بضعة شهور على احتلال الروس لداغستان اجتمعت في أثناء الحج بحاجين قفقاسيين كانت الحرب لم تصل بعد إلى بلادهما أكدا لي أن باستطاعتهما أن يرافقاني إلى داغستان وإلى مدينة « شروان » بالذات .

كانت الحرب قد بدأت بالقفقاس ، وبدأت البلاد القفقاسية بالجهاد أيضاً ، ولكنها لم تستطع أن تثبت ثبات الداغستانيين سنين طويلة . كان الروس يبذلون جهوداً جبارة حتى يستولوا على بلد إثر بلد من بلاد القفقاس الواسعة .

اتفقت مع الحاجين الشابين القفقاسيين أن نعود من الحج إلى دمشق ، ونمكث فيها بضعة أيام ريثما أجهز نفسي ، ثم نسير إلى بيروت حيث نركب باخرة تمخر بنا البحر إلى تركيا ، ومنها سنسافر براً إلى داغستان . كان مرافقاي

يعرفان مسالك تلك الطرق الجبلية فوثقت بهما، ووعدتهما بمكافأة ثمينة أدفعها إليهما عندما نصل إلى مدينة «شكي» وسأقوم أنا بتكاليف الرحلة كلها.

كانت الرحلة في البحر من بيروت إلى تركيا ممتعة جداً لمن كان خالي البال. أما من كان مثلي مهموماً كئيباً فلا يستمتع بشيء.

كان أكثر ما يخيفني هو أن أصل إلى «شكي» بعد هذه السنين الطويلة التي امتدت إلى ما ينوف على خمس وثلاثين سنة محفوفة بالشوق واللهفة فلا أجد أمي على قيد الحياة. فأكتفي من رحلتي الشاقة هذه بزيارة قبرها ثم أعود إلى دمشق خائباً مقهوراً. ولكن شيئاً في أعماقي كان يطمئنني كلما اشتد بي القلق، ويبعث في نفسي شعاعاً من أمل يتوهج عندما يساورني اليأس.

وصلنا تركيا ومكثنا فيها ليلة واحدة، كم كنت أرغب في زيارة هذه البلاد العظيمة، لا سيما القسطنطينية لكنني أرجأت ذلك إلى حين العودة. كان مرافقاي قد أودعا حصانين لهما عند تاجر خيول، ثم استأجرت أنا أيضاً حصاناً دفعت ثمنه كاملاً وعندما أعيده إلى صاحبه يخصم الأجرة ثم يعيد إليَّ ما تبقى من ثمن الحصان.

ركبنا خيولنا وأخذنا زوّادة تكفينا ثم اتجهنا نحو داغستان.

لم يحدث لنا أي إزعاج في الطرق الجبلية، فقد كانت خالية من المارة كنا نشاهد بين حين وحين فارساً، أو أحد المشاة فنتبادل التحية، ثم يسير كل منا في طريقه أو نشاهد بعض الرعاة مع قطعانهم، فنشتري منهم الحليب الذي لا مثيل لمذاقه اللذيذ، لكم ذكرني طعمه بطفولتي السعيدة.

أخيراً وصلنا إلى «شكي» ودعت مرافقيَّ، ودفعت لهما المكافأة فشكراني عليها جزيل الشكر ثم انصرفا.

ها أنذا في «شكي» بلدي الحبيب، الحلم الذهبي بدأ يتحقق اللهم أتممه على خير وسلامة، لم تتغير معالم «شكي» أبداً، سوى أنها شاخت قليلاً، وهرمت بيوتها لا شك أن هذا كان من تأثير الحرب. ولكن لماذا أصبحت كأنها خالية من السكان، يتبختر فيها بعض العسكريين الروس فيثير مرآهم حنقي، لا بد أن سكان المدينة أصبحوا بعد الهزيمة يؤثرون المكوث في بيوتهم بعد أن يعودوا من أشغالهم. ها هي ذي ساحة البلدة، وهذا هو الجامع قبالته تماماً يوجد زقاق ضيق في أوله بيت جدي لأمي، وفي لصقه تماماً كان بيتنا الذي باعه أخواي عندما هاجرا إلى دمشق.

ترجلت عن حصاني واقتربت من باب بيت جدي، بدأ قلبي يخفق بشدة حتى كنت أسمع صوت ضرباته بأذني، لم يسبق لي أبداً أن مررت بمثل هذه الحالة من التوتر العصبي أبداً، أرفع يدي لأطرق الباب ثم تتراجع يدي خوفاً من أن يخرج إليَّ أحد أخوالي أو خالاتي فيحمل إليَّ خبر السوء عن أمي!..

أخيراً تشجعت وطرقت الباب. فتحت لي امرأة شابة ملتفعة بغطاء أبيض، إنها أمي يا إلهي ألم تهرم أمي بعد؟ وقفت أمامها مشدوهاً فاغراً فمي حيران، لا، لا، هذه ليست أمي، لو كانت أمي لعرفتني فوراً. قالت المرأة:

ـــ من أنت وماذا تريد؟ قلت: جئت لأسأل عن بيت أم صالح، وعاد قلبي إلى الخفقان.

• قالت الصبية :

ـــ من أين أنت آتٍ ؟ قلت :

ـــ أتيت من دمشق .

راحت الصبية تفحصني بنظرات ثاقبة، ثم قالت :

ـــ وماذا تريد من أم صالح؟ قلت متململاً :

ـــ لا أريد منها شيئاً، أريدها هي فقط، هي فقط .

• قالت :

ـــ اسمك صالح؟ قلت :

ـــ وكيف عرفت ذلك؟ قالت :

ـــ عرفت ذلك لأنك أخي . قلت بلهفة شديدة :

ـــ أنت أختي إذن .

وتعانقنا، ورحنا نبكي، وأنا أقول لها خذيني إلى أمي، خذيني إليها . قالت :

ـــ اخفض صوتك، أخشى أن تسمعك أمي . قلت :

ـــ ولماذا أخفض صوتي دعيني أذهب إليها، وكدت أزيحها عن طريقي، حالت دون ذلك، وقالت بنغمة حزينة :

ـــ ماذا أقول لك يا أخي؟ إن أمنا قد أصبحت عمياء!.

• قلت :

ـــ أمي عمياء؟!.. وضربت جبهتي بيدي ضربة كدت أدوخ منها ، وأقع على الأرض .

وإذا صوت أمي ذو البحة الحلوة يتناهى إليَّ من الداخل قائلة :

ـــ مع من تتكلمين يا خديجة ؟

صمتت خديجة لحظة ، ثم اتجهت نحو الداخل ، لحقت بها على رؤوس أصابعي .

رأيت أمي جالسة على حشية في صدر الغرفة التي كنا نسهر فيها ليالي الشتاء .

تمالكت أعصابي ما استطعت كي أظلَّ صامتاً ، ورحت أرنو إليها وقلبي يخفق .

ما زال وجهها على الرغم من التجاعيد الخفيفة حول الفم والعينين أنيساً جميلاً ، شعرها الفاحم أصبح رمادياً ، أما عيناها الواسعتان فكانتا تحدقان في الفراغ دون أي تعبير !...

العينان المشعتان الغاليتان عليَّ أصبحتا مطفأتين !.. وتنهمر دموعي مدرارة .

• قالت أمي ، وهي تحدق في الفراغ :

ـــ لـمَ لم تقولي لي يا ابنتي مع من كنت تتكلمين ؟

• قالت خديجة :

ـــ بالباب يا أمي رجل يسأل عنك . قالت أمي :

ـــ رجل يسأل عني ؟ وماذا يريد مني ؟ قالت أختي :

ـــ قال لي إنه يريد أم صالح فقط . قالت أمي :

ـــ ومن أين جاء هذا الرجل ؟ قالت أختي :

ـــ يقول إنه جاء من دمشق . صرخت أمي :

ـــ أدخليه يا خديجة هذا هو ابني صالح ، تعال يا صالح ، تعال يا ابني إلى حضن أمك العمياء ، ألم تأت حتى عميت عيناي حزناً عليك !؟..

وأهرع إليها ، أركع أمامها ، أُقبّل يديها وقدميها وأدفن رأسي في صدرها ، ونجهش كلنا في البكاء ، وتقول أمي وهي تنهنه :

ـــ كم أنا مشتاقة يا ابني إلى رؤية وجهك الجميل ، وراحت تتحسس وجهي بيدها ، وتقول :

ـــ لقد أصبحت لك لحية ، أهي سوداء فاحمة كما كان شعرك أسود فاحماً ، قلت :

ـــ لقد وخطه الشيب يا أمي ، قالت :

ـــ لا ، لا ، لا أصدق أن الشيب قد غزا شعرك ، أنت لا تزال صغيراً يا ابني . قلت :

ـــ عندما غادرت داغستان يا أمي كان لي من العمر عشر سنوات

فقط، وقد مضى على ذلك خمس وثلاثون سنة، أتستغربين إذا وخط الشيب شعر ابنك؟ قالت:

ـــ أنت في خاطري ما تزال صغيراً، لا أستطيع أن أتصور أنك أصبحت في الخامسة والأربعين من عمرك. ألم تتزوج يا ابني، وكم لك من الأولاد؟ قلت:

ـــ لقد تأخر زواجي كثيراً، لأنني أصررت ألّا أتزوج إلّا من امرأة تشبه أمي. قالت:

ـــ وهل وجدت تلك التي تشبه أمك؟ قلت:

ـــ لقد وجدتها، إنها تشبهك، ولكنها ليست في مثل جمالك، أنت يا أمي أجمل امرأة في العالم، هزت رأسها وقالت كان ياما كان، ثم قالت:

ـــ ما اسم زوجتك، وهل هي من دمشق، وكم ولد رزقت منها. قلت:

ـــ اسم زوجتي زينب، وهي كرجية ولطيفة جداً ستحبينها كثيراً يا أمي عندما تتعرفين إليها. وقد رزقت منها بولد واحد سميته نجيباً وقد أصبح عمره الآن خمس عشرة سنة، سألتني أمي قائلة:

ـــ ولماذا لم ترزق إلّا بولد واحد يا بني؟ قلت:

ـــ إرادة الله يا أمي.

كان جدي يتكلم، ونحن نكفكف دموعنا فلما انتبه إلينا قال:

ـــ لا بأس أن تبكوا قليلاً مع جدكم، فقد بكيت في ذلك اليوم كثيراً. ثم قال:

ـــ رحت بعدئذٍ أسأل أمي عن أخوالي وخالاتي فكانت تحدثني عن قصة كل واحد منهم. لقد تشتت شمل الأسرة المتماسكة كلها، خالي الكبير توفي منذ عشر سنوات. وخالي الذي يليه استشهد في الثورة، وخالاي الصغيران وأسرتاهما هاجرا مع خالتي الكبيرة إلى تركيا، وخالتاي الصغيرتان هاجرتا مع أسرتيهما إلى إيران أيضاً، ثم قالت أمي: الهجرة هي أكبر خطيئة يرتكبها الداغستانيون، لكم حاولت أن أثني أخوالك وخالاتك عن الهجرة فلم أفلح، أنترك أرضنا وبيوتنا للغزاة ونهاجر؟ الروس يستولون الآن على البيوت التي هجرها أصحابها فيسكنونها أو يهدمونها، ويعمرون مكانها ثكنات لجيوشهم، من أجل ذلك سكنت أنا هذا البيت مع أختك حتى إذا عاد أخوالك من هجرتهم وجدوا بيتهم سليماً، وظل أخوك سعيد ينام في بيت أبيه لنحافظ عليه أيضاً، أما أختك خديجة هذه التي تراها أمامك، فقد استشهد زوجها عريساً، بعد زواجه بشهر واحد وكان ذلك منذ ثلاث سنوات، وقد أضربت عن الزواج على الرغم من كثرة خطابها، وراحت أختي خديجة تكفكف دموعها فعرفت أن جرحها لم يندمل بعد. ثم قالت أمي:

ـــ كيف نسينا يا خديجة أن نخبر أخاك سعيد بمجيء أخيه صالح سيعتب علينا كثيراً، اذهبي يا بنتي إليه وأخبريه. قالت خديجة لقد حان ميعاد مجيئه إلينا، وما كادت تقول ذلك حتى سمعت صرير مفتاح في قفل الباب، ويدخل أخي سعيد شاب مهيب الطلعة، فارع الطول يرتدي ألبسة داغستانية أنيقة جداً، نظر إليَّ باستغراب شديد وهو يراني أجلس بين أمه وأخته جلسة حميمة جداً. قالت أمي:

ـــ أتعرف من هذا الذي بيننا يا سعيد، إنه أخوك صالح، ويهجم سعيد علي ونتعانق ونتبادل القبلات وأسمع أمي تتمتم بصوت حزين جداً:

ـــ يا ليتني كنت أبصر لأرى ولديَّ كيف يتعانقان . وأشعر أن سكيناً تنغرز في قلبي .

لكم أحببت أخي وأختي لكأني قد تربيت معهما وكان لم يمض على تعارفنا إلّا ساعة وبعض الساعة . قالت أمي :

ـــ يا بنتي يا خديجة ماذا ستطعموننا على العشاء؟ يا ليتني أستطيع أن أساعدك . قالت خديجة :

ـــ لا عليك يا أمي سأهيئ وحدي كل شيء، ثم راحت تسر في أُذن أخيها سعيد كلمتين لم نسمعهما . ويخرج سعيد من البيت ، ويغيب قليلاً ثم يعود وهو يحمل شيئاً ناوله لأخته خديجة ، وتدخل خديجة المطبخ . أدركت أنه اشترى حاجات للطبخ . تضايقت ، أيعتبرونني ضيفاً غريباً ويعدون لي وليمة ؟ كم كنت أتمنى لو أطعمونني من الطعام الموجود لديهم ، لن أدع هذا يتكرر مرة ثانية ، أما الآن فلا فائدة من الاعتراض .

اقترب مني سعيد ، وقال :

ـــ ألا تحب أن تغتسل وتغير ألبسة السفر لآتيك بألبسة خفيفة من عندي ، قلت :

ـــ ولا أحب إليَّ من ذلك ، لكن عندي ألبسة . أين هو الخرج؟ قال :

ـــ وضعته خديجة في الغرفة التي ستنام فيها ، قلت :

ـــ أية غرفة هي، إنني ما أزال أذكر غرف هذا البيت غرفة غرفة، قال:

ـــ الغرفة الأخيرة التي تطل شبابيكها على الطريق، قلت:

ـــ هي إذن غرفة جدي رحمه الله، قالت أمي:

ـــ كم هي ذاكرتك قوية يا بني كان عمرك لم يتجاوز العاشرة عندما غادرت هذا البلد، كم أشعر بالحزن يعصر قلبي عندما أرى أمي تتحدث وتنظر أمامها في الفراغ بعينين مطفأتين يا إلهي لم أكن لأنتظر هذه الفاجعة أبداً، أكاد أموت غيظاً من تصاريف هذا القدر الغاشم. أستغفر الله وأتوب إليه من كل ذنب عظيم، قمت إلى الغرفة التي خصصت لي. فتحت الخرج، وتذكرت الهدايا. لقد أنستني الفاجعة كل شيء. أخرجت من الخرج منشفة وليفة، وقميصاً وسروالاً وقفطاناً، وتبعت أخي سعيد. قادني إلى غرفة صغيرة لصق المطبخ، أرضها مرصوفة بحجارة بيضاء فيها بالوعة، وقد وضع فيها ماعون كبير أمامه كرسي من خشب. قلت لأخي سعيد:

ـــ لا أذكر هذه الغرفة أبداً. قال سعيد:

هذه أحدثت فيما بعد وخصصت للحمّام، كانوا على ما أظن يستحمون في المطبخ. قلت:

ـــ أذكر ذلك. وراح سعيد ينقل الماء الساخن من المطبخ إلى الماعون حتى ملأه. استحممت وتوضأت وارتديت ألبستي النظيفة الخفيفة، وشعرت بشيء من الانتعاش.

صليت المغرب في غرفتي ثم عدت إلى الغرفة التي كنا فيها، فوجدت المائدة قد أعدت وهم ينتظرونني، نظرت إلى المائدة وقلت:

ـــ هذه هي الأكلة الداغستانية المفضلة لدي، اللحم المسلوق المبهر، وقد تنتهي كل قطعة لحم بعظمة رفيعة كنا نمسكها باليد وننهش منها اللحم ثم نأخذ فوقها جرعة من الشوربا اللذيذة جداً والتي تصنع من مرق اللحم يضاف إليه قطع العجين المرقوق والمقسم إلى مربعات صغيرة، ثم يضيف كل واحد حسب ذوقه إلى صحن الشوربا الذي أمامه شيئاً من الثوم المدقوق المخلوط بالفليفلة الحمراء الحادة مع قليل من ماء البندورة أو الليمون، هذه الأكلة لا يشبع منها الداغستاني، يظل ينهش اللحم ويحتسي الشوربا حتى تفرغ الصحون كلها. ثم تناولنا الفاكهة من الإجاص والتفاح والعنب ذات النكهة الخاصة مما ينبت في جبالنا الشماء وسهولنا الخصبة.

كانت خديجة تجلس إلى جانب أمي تناولها قطع اللحم وتصب لها الشوربا والصلصة ثم تقشر لها الفاكهة، وكانت أمي تأكل بهدوء وأناقة وكأنها ليست عمياء.

بعد أن انتهينا من الطعام قلت لأخي سعيد:

ـــ هل لك أن تأتني بالخرج يا أخي سعيد.

قام سعيد وأتى بالخرج. أول ما أخرجت منه قنينة مختومة مليئة بماء زمزم صببت منها قليلاً في كأس وأسقيت منها أمي بيدي، وأنا أقول لها:

ـــ بعد شهور قليلة ستشربين ماء زمزم من نبعه إن شاء الله. قالت:

ـــ ماذا تقول يا ابني أوَستأخذني إلى الحج يا صالح وأنا عمياء؟ قلت:

ـــ وماذا في ذلك ؟ سيحسب لك أجر مضاعف . لقد وعدت أبي أن آتي بك إلى الحج ولا بد لي أن أفي الوعد .

• قالت :

ـــ أوَ أبوك ، رحمه الله وأحسن إليه ، هو الذي طلب منك ذلك . قلت :

ـــ نعم وكان ذلك يوم بلَّغني أمر طلاقك منه ، بكيت كثيراً يومئذٍ ، ولكنه استطاع أن يقنعني أنه طلقك حباً بك ، لأنه أصبح شيخاً عجوزاً لا يليق بصبية حسناء مثلك ، ووعدته أن آتي إلى داغستان متى كبرت وتيسر لي ذلك لآخذك إلى الحج ، ولكن الأمور يا أمي مرهونة بأوقاتها ، فلم يأذن لي الله إلّا الآن . وسآخذ معنا أيضاً أخي سعيد وأختي خديجة . قالت أمي :

ـــ آه يا ليتني كنت أبصر لتتم فرحتي ، فشعرنا كلنا بغصة . ثم أردت أن أغير الحديث فأخذت أخرج الهدايا من الخرج ، هذه الأقمشة من حرير الهند كلها لك ، وهذه ذات الألوان الزاهية لأختي خديجة ، وهذه العباءة من الصوف الناعم المحلاة حواشيها بالقصب لأخي سعيد ، وهذه المسابح كلها لك لتهدي منها لمن شئت من أهلك ، وأصحابك ، وهذه التمور والبخور وخواتم العقيق والمساويك والبن كلها لكم . لقد أفرحتهم هداياي ، ولا شك أن فرحتهم كانت أكبر عندما عرفوا أنني سآخذهم معي إلى الحج وسيرون القسطنطينية ودمشق وبيروت ، هم الذين لم يسبق لهم أن خرجوا من داغستان أو بالأحرى من « شكي » كانت خديجة تتحدث مع أمي وتصف لها الهدايا وألوانها .

اغتنم أخي سعيد فرصة انشغال أمي وأختي بالهدايا وأخذني إلى ركن بعيد عنهما ، وقال لي :

ـــ يوجد الآن في داغستان طبيب عيون روسي شهير جداً وماهر جداً، يقولون إنه يقوم بالأعاجيب، وقد ذهب إليه رجل أعمى من بلدنا أعرفه حق المعرفة، وقد فقد بصره منذ أكثر من ثلاث سنوات مثل أمي تماماً فأجرى له عملية وأعاد إليه بصره كما كان. قلت:

ـــ أتعرف هذا الخبر السَّار وتسكت عنه إلى الآن؟ ثم قلت بلهجة تأنيب:

ـــ ولماذا لم تأخذ أمك إلى هذا الطبيب منذ عرفت خبره؟ احمرّ وجهه، ودمعت عيناه، ولم يحر جواباً، فعرفت أنه لا يملك من المال ما يكفي تكاليف السفر وأجرة العملية. وأشعر بالأسى والحنق يملآن نفسي، أأملك المال الكثير وتظل أمي أسيرة الظلام ثلاث سنوات كاملة لأنها لا تملك تكاليف العملية!.. قلت لسعيد:

ـــ غداً صباحاً سنأخذ أمي إلى هذا الطبيب. قال سعيد:

ـــ تبعد عنا البلدة التي يسكنها مسيرة يوم كامل بالعربة. قلت:

سنذهب إليه ولو كان في آخر هذه الدنيا، ولكن هل ستنجح العملية يا ترى؟ أجاب سعيد:

ـــ يقولون عنه إنه يفحص المريض فحصاً دقيقاً فإذا وجد أملاً في الشفاء أجرى العملية، وإلّا اعتذر عنها. قلت لسعيد:

ـــ أكتم هذا الخبر عن أمك وعن خديجة أيضاً سنفاجئهما به غداً.

وينظر جدي إلى ساعته، ويقول وهو ينهض:

ـــ وي، وي، كاد ينتصف الليل، لقد أُخذنا بالحديث يا أولادي فلم نشعر بمرور الوقت. قلنا له:

ـــ قل لنا كلمة واحدة يا جدي، كلمة واحدة فقط، هل نجحت عملية أمك؟ قال وهو يسير نحو الباب:

ـــ هذا لا يجوز في الحكايات قطعاً، غداً ستعرفون إذا نجحت العملية أم لم تنجح!...

* * *

٢٠

• قالت أمي :

ـــ كنا يومئذٍ ننتظر ميعاد الحكاية بفارغ الصبر ، فلما حان ميعادها ، وجاء جدي ليأخذ مكانه بيننا كان وجهه مشرقاً وابتسامته تلوح على فمه فاستبشرنا بالخير ، ابتدأ حديثه قائلاً :

ـــ لم أنم ليلتئذٍ أبداً على الرغم من تعب السفر ، وتعب المفاجأة المفجعة غير المنتظرة ، ورحت أتحدث إلى نفسي :

أية فرحة كبرى إذا نجحت العملية ، ماذا سأفعل إذا وقعت المعجزة وعاد إلى أمي بصرها ، ووجدتني أقول :

ـــ نذراً عليَّ سأذبح عشرة أكباش أوزِّع لحومها على فقراء « شكي » فيما إذا وقعت هذه المعجزة .

لقد طال عليَّ الليل وطال ، ولما لاحت طلائع الفجر قمت من فراشي

بهدوء كي لا أوقظ النائمين وتوضأت وصليت ثم أخرجت مصحفي ، ورحت أرتل القرآن بصوت خفيض ، وكلما انتهيت من سورة صليت ركعتين ، واتجهت إلى ربي أدعوه من قلب كسير أن يمنَّ عليَّ ، ويعيد إلى أمي بصرها .

بعد فترة استيقظت أمي ، وسمعتها تنادي خديجة ، وتهرع خديجة إليها لتخرجها من غرفتها لتتوضأ وتصلي صلاة الفجر ، وبعد أن انتهت من صلاتها جئت إليها أحييها تحية الصباح وأقول لها :

ـــ اشتقت إليك يا أمي لقد طال عليَّ الليل كثيراً قالت :

ـــ تعال اجلس إلى جانبي أكاد لا أصدق أنك هنا معنا ما لم ألمسك بيدي وإلّا حسبتني أحلم حلماً جميلاً . دخل أخي سعيد وحيانا تحية الصباح ، اقتربت منه ووشوشته :

ـــ لا تذكر شيئاً الآن عن الطبيب عن ننتهي من طعام الفطور .

بدأت تشرق الشمس ، وكانت خديجة في المطبخ تهيئ لنا طعام الفطور ، نحن الداغستانيون نحب أن نتناول فطورنا ، ونمارس أعمالنا باكراً ، ثم نعود إلى بيوتنا باكراً حتى إذا ابتدأت السهرة وجاء الضيوف ، كنا قد أخذنا نصيبنا من الراحة وأصبحنا نستطيع أن نرقص ، ونغني ، ونلعب الألعاب ونروي النكات والأشعار حتى منتصف الليل .

تناولنا طعام الفطور ثم جلسنا حول أمي ، ابتدأت أنا الحديث ، قلت لها :

ـــ اسمعي يا أمي ، لك عندي مفاجأة هامة جداً .

• قالت :

ـــ هل هناك مفاجأة أروع من مجيئك إليَّ ؟ قلت :

ـــ نعم يوجد مفاجأة ما كنا لنحلم بها جميعاً ، يقول أخي سعيد إنه سمع أن طبيب عيون روسياً ماهراً جداً موجوداً الآن في داغستان ، وفي بلد لا يبعد عنا كثيراً ، استطاع أن يشفي بعض الناس من العمى ، فما رأيك في أن نذهب اليوم إليه ليداويك ؟

ضحكت أمي ضحكة ساخرة ، وقالت :

ـــ أوَتصدق يا بني كل ما يُقال لك ؟ أيمكن أن يعود إلى أمك بصرها بعد أن أمضت ثلاث سنوات في ظلام دامس ؟!... قلت :

ـــ ليس هذا على الله بعزيز . قالت :

ـــ ونعم بالله ، ولكن اسمع مني ووفِّر نقودك لما هو أجدى وأنفع . قلت :

ـــ وهل يوجد شيء في هذه الدنيا أجدى وأنفع من أن يعود إليك بصرك . قال سعيد :

ـــ لقد رأيت يا أمي بعيني الاثنتين رجلاً من بلدنا « شكي » أعرفه حق المعرفة كان أعمى ، ذهب إلى هذا الطبيب فأجرى له عملية بسيطة استطاع بها أن يرد إليه بصره بعد عمىً دام أكثر من ثلاث سنوات ، أي مثلك تماماً .

• قالت :

ـــ أصحيح ما تقول يا بني، توكلت على الله، هو حسبي ونعم الوكيل. كانت أمي تجيد اللغة العربية كتابة وقراءة تعلمتها من أبي.

كانت خديجة تتابع حديثها، وتتمتم بالدعوات أيضاً. قلت لها:

ـــ ألبسي أمي ثيابها، وهيئي لها بعض ألبسة النوم، ثم ماذا يوجد عندك من الطعام يكفي زوّادة لنا؟ قال سعيد:

ـــ لقد هيأت زوّادة تكفينا مدى الطريق من البيض المسلوق والجبن والفاكهة والماء. قلت هذا يكفي، ثم سألته:

ـــ هل يوجد عند الطبيب ترجمان يجيد الروسية ولغتنا الداغستانية؟ قال سعيد:

ـــ لسنا بحاجة إلى ترجمان لأنني أجيد اللغة الروسية. قلت مستغرباً ذلك:

ـــ ومتى تعلمت الروسية يا شاطر؟؟ قال:

ـــ تعلمتها منذ كنت صغيراً. كان أبي رحمه الله يقول:

ـــ يجب علينا أن نتعلم لغة أعدائنا كي لا يفوتنا شيء من تدابيرهم ونياتهم، وكان يوجد في بلدنا معلمون يدرِّسون اللغة الروسية لمن شاء أن يتعلمها. وقد أفادتني معرفتي باللغة الروسية كثيراً منذ احتل الروس بلادنا لأنهم يحترمون من يجيد لغتهم. قالت خديجة:

ـــ سأذهب معكم أنا أيضاً لأطمئن على أمي. قال لها سعيد:

ـــ لا يجوز أن نترك البيت خالياً من السكان، سأطلب من جيراننا أن

يرسلوا إليك إحدى بناتهم لتنام معك وتستأنسي بها ، كما سأطلب من أصحابي أن ينام أحدهم في بيتنا أثناء غيابي ، لأن الروس يحتلون فوراً البيوت الفارغة من سكانها . سكتت خديجة على مضض ، قلت لها :

ـــ لا أحب أن أراك مقهورة ، أحب أن أراك دائماً ضاحكة ، ما هي إلّا ثلاثة أو أربعة أيام وسنعود إليك وأمنا قد عاد إليها بصرها ، رفعت يديها إلى السماء وقالت : يا رب . قال سعيد :

ـــ سأذهب وآتيكم بالعربة ، ستقف في الساحة عند مدخل الزقاق ، وما هي إلّا بضع دقائق حتى عاد سعيد ليخبرنا أن العربة قد أصبحت جاهزة . قلت :

ـــ نسيت أن لي عندكم حصاناً ، ما خبره ؟ قال سعيد ضاحكاً أتمنى أن تظل ناسياً أن لك عندنا حصاناً ... لا يهمك أمره لقد أودعته عند أحد أصدقائي ليعتني به . قلت :

ـــ إذا أعجبك هذا الحصان فهو هدية مني إليك ، راح سعيد يقبل يديَّ ، ويقول لي :

ـــ لكم أنت كريم يا أخي . منذ استشهد أبي ، وكان ذلك منذ عشر سنوات ، قتل حصانه معه ، ومنذ ذلك الحين وأنا أتمنى أن أملك حصاناً . قلت :

ـــ ها أنت ذا قد ملكت .

ركبنا العربة ، جلست أنا وأمي في الصدر ، وجلس سعيد على الكرسي المقابل لنا .

راحت الخيول الأربعة الشابة تنهب الأرض وتجر العربة في الطرق الوعرة، والدروب الصاعدة في الجبال. كان صباحاً ربيعياً جميلاً، ولكنني عندما أكون مشغول البال لا أستطيع أن أستمتع بشيء. كنا نجلس صامتين لا نسمع سوى صوت حوافر الخيل وهي تضرب الأرض، وتمتمات أمي وهي تسبّح، وكان كل واحد منا مشغولاً بحديث نفسه. كان أكثر ما يخيفني هو أن لا تُجرى لأمي عملية، كم ستكون خيبتها مريرة ومؤلمة، بعد أن خامرها شيء كثير من الأمل. لقد أخطأنا !... كان يجب علينا أن نأخذها بحيلة ما دون أن تدري أننا نريد معالجة عينيها ليعود إليها بصرها، لا شك أن أحلى أمنية عندها الآن هي أن ترى وجهي. سبحان الله لماذا لا تأتيني الأفكار الصائبة إلّا بعد فوات الأوان ؟..

أراد أخي سعيد أن يسلينا فراح يلفت أنظارنا إلى هذه الجبال الشامخة الملونة، وإلى الصخور الناتئة وقد تشبث بها اللبلاب ونبتت عليها الأزهار. كنا نسايره قليلاً ثم نعود إلى الصمت، بعد مضي أربع ساعات دخلنا قرية صغيرة، أوقف الحوذي العربة وقال :

ــ لا بد لنا أن نستريح هنا مقدار ساعة على الأقل، لأن الصعود في الجبال قد أتعب الخيول كثيراً، فيجب أن أطعمها وأسقيها وأدعها تستريح. ويمكنكم أنتم أيضاً أن تستريحوا في خان هنا أُعدَّ ليستريح فيه المسافرون. أخذنا الحوذي إلى الخان، فاستقبلنا صاحبه بترحاب، وقدم لنا مقاعد مفروشة بجلود الخرفان الصغيرة، وإبريقاً مليئاً بالماء البارد ملأه من نبع رقراق يجري قرب الخان. أحضر سعيد الزوّادة ولم نكن نشعر بشهية للطعام. أكل كل واحد منا بضع لقيمات ثم أعطينا ما تبقى للحوذي.

حان وقت مسيرنا، عدنا إلى العربة وأخذنا طريقاً منحدرة هذه المرة،

إن الصعود كان أسهل على الخيول من هذا الانحدار نحو هذا الوادي السحيق، شعرنا كلنا بالخوف خشية أن تهوي بنا العربة إلى هذا الوادي السحيق، حتى أمي العمياء التي كانت لا تستطيع أن تقدر صعوبة هذا الانحدار لأنها لا تراه. كنت أسمعها تقول بين حين وحين: يا لطيف، الطف بنا يا رب. بعد أن انتهى الانحدار، دخلنا طريقاً مستوية ثم بعد ساعتين وصلنا إلى القرية التي يسكنها الطبيب، وكان ذلك قبل غياب الشمس بقليل. قلت لأخي سعيد:

ـــ ما رأيك في أن نذهب فوراً إلى الطبيب عسانا ننام اليوم مطمئنين؟

قال:

كنت سأقترح عليك هذا الاقتراح، ولكنك سبقتني إليه، وراح يسأل المارة عن عيادة الطبيب حتى وجد من هداه إليها، وكانت غير بعيدة عنا، أوقفنا العربة أمام العيادة وترجلنا منها. كانت العيادة بيتاً ريفياً صغيراً، قسم الطبيب غرفه الثلاث إلى غرفة للفحص، وغرفة للعمليات والثالثة جعلها للانتظار.

استقبلنا رجل روسي لعله مساعد الطبيب، تحدث معه أخي سعيد فأخذنا إلى غرفة الانتظار. من حسن حظنا أنه لم يكن فيها أحد غيرنا، بعد قليل جاء الطبيب حيّانا بأنس ولطف، أحببت هذا الرجل منذ وقع نظري عليه ورأيته يشمل أمي بنظرة حنان، فقد عرف منذ الوهلة الأولى أنها المريضة، أخذها من يدها وسار بها نحو غرفة الفحص، وأشار إلينا أن نتبعه. أجلس أمي على كرسي أمامه وراح يلقي عليها بعض الأسئلة، وكان سعيد يقوم بالترجمة، ثم وضع الطبيب منظاراً على إحدى عينيه، وأشعل مساعده مصباحاً قدمه من عيني أمي وراح الطبيب يبعد جفنيها عن بعضهما ويتأمل

الحدقة بمنظاره ويطلب من أمي أن تنظر إلى الأعلى، إلى الأسفل، إلى الجانبين، ثم أجرى الفحص نفسه على العين الثانية ولما انتهى منها رفع المنظار عن عينه وربت على كتف أمي، والتفت إلى سعيد وقال له:

ـــ قل لأمك الطيبة أن عينيها سليمتان، ماهو إلّا الماء الأزرق، والعملية بسيطة لا خوف منها سأجريها لها غداً صباحاً، وبعد ثلاثة أيام سأرفع الضمادات عن عينيها وسيعود إليها بصرها كما كان. قال جدي:

ـــ أتعرفون ماذا فعلت يا صغاري؟ أخذت يد الطبيب ورحت أقبلها، كان يتمتم باللغة الروسية ويسحب يده مني.

هذه اللحظة كانت أسعد لحظة في حياتي كلها. التفتُّ إلى أمي لأهنئها فوجدتها في شبه غيبوبة من شدة الفرح، طلب الطبيب من مساعده كأس ماء وضع فيها بضع نقاط من دواء منعش وقربها من فمها فشربتها فانتعشت فوراً وقالت وهي تحدق إلى الفضاء بعينين مطفأتين كعادتها:

ـــ أحقاً ما يقوله هذا الرجل؟ أيعود إليَّ بصري بعد ثلاثة أيام وأرى وجهك يا صالح؟

• قلت:

ـــ قولي يا أمي إن شاء الله. قالت:

ـــ كل شيء بمشيئته تعالى، الحمد لله على كل حال.

ودعنا الطبيب على أن نعود إليه صباح الغد في الساعة التاسعة. كانت العربة ما تزال في انتظارنا. أخذنا الحوذي إلى خان لا يبعد كثيراً عن العيادة، ثم أخذ أجره وانصرف.

تناولنا طعامنا في ذلك الخان وبتنا ليلتنا فيه، في غرفة واحدة نحن الثلاثة.

استيقظنا بعد بزوغ الفجر بقليل، أخذ سعيد أمه إلى المرحاض، ثم توضأنا وصلينا، وبعد شروق الشمس حمل إلينا صاحب الخان طعام الفطور، بعد الطعام ارتدينا ألبستنا، وكان قد حان ميعاد الطبيب، ذهبنا إلى العيادة سيراً على الأقدام. كانت أمي تتكيء علي وتضغط على يدي، وتقول لي:

ـــ إنني أشعر بخوف شديد يا صالح. قلت لها:

ـــ أعرفك يا أمي شجاعة مقدامة فماذا دهاك الآن؟

● قالت:

ـــ ألا تعرف ماذا جرى لأمك؟ إنها الشيخوخة يا ابني!.

وصلنا العيادة فوجدنا الطبيب بانتظارنا. أخذ أمي فوراً إلى غرفة العمليات، وبقيت أنا وسعيد في غرفة الانتظار. إنها أصعب اللحظات التي يمر بها أهل المريض.

بعد ساعة انتهت العملية، وخرج الطبيب ليطمئننا. قال بتواضع العلماء:

ـــ أعتقد أن العملية ناجحة. أفضل أن تبقى المريضة عندنا في العيادة تحت المراقبة حتى المساء. ثم جاء بها إلى غرفة الانتظار وكان يوجد في الغرفة سرير، طلب الطبيب من أمي أن تتمدد على ظهرها وتحاول جهدها ألّا تتحرك. ثم قال لنا:

ـــ أفضل أن تنصرفا الآن، لأنني سأعطي المريضة دواءً منوماً ولن تصحو منه إلّا قبيل المغرب، عندئذٍ ستأتيان لأخذها من هنا، ثم تعيدانها إليَّ بعد ثلاثة أيام لأرفع الضمادات عن عينيها.

ما كان أطول هذه الأيام الثلاثة، أمضيناها في الخان الصغير بالقرب من أمنا. أردت ذات مرة أن أسليها فقلت لها:

ـــ سأروي لك يا أمي حادثة جرت لي يوم بلَّغني أبي خبر طلاقك منه، كنت حزيناً، وتعيساً جداً رغم الكلام الجميل الذي قاله لي أبي عنك، وهو ينم عن شعور نبيل وحب عميق لك، أويت إلى فراشي، لم أستطع النوم فرحت أبكي حتى شعرت كأنني أختنق، ولما تأكد لي أن أبي قد غرق في نومه، خرجت من الغرفة إلى الزقاق، وجلست على حجر كان قرب الحائط ورفعت طرفي إلى السماء أشكو همي إلى ربي وكان في السماء بعض الغيوم الشفافة وقمر صغير يرسل أشعة باهتة، فإذا بي أراك تنبثقين من غيمة شفافة، وكنت ترتدين ثوباً أزرق، وكانت ضفيرتاك الطويلتان تنوسان على صدرك رحت تقتربين مني ثم تبتعدين، ثم تقتربين وأنا أنظر إليك مبهوتاً أمد يدي عساي ألمسك وأشدك إليَّ فإذا بك تتوارين من أمامي. قالت أمي:

ـــ متى كان ذلك يا بني؟. قلت:

ـــ كان قبيل الفجر ليلة وقفة عرفات سنة جاء زوجك إلى الحج. قالت:

ـــ سبحان الله، في الليلة نفسها، وفي اللحظة نفسها، كنت أراك يا صالح كما كنت تراني تماماً. اشتد شوقي إليكَ ليلتئذٍ شعرت بضيق يكاد يكتم

أنفاسي، خرجت من غرفتي وصعدت إلى السطح ورحت أتأمل القمر في السماء، فإذا بي أراك تنبثق من غيمة، وأنت ترتدي بذلتك الداغستانية التي كنت أحبها عليك جداً وعلى رأسك القلبق الأسود فرحت تقترب مني ثم تبتعد ثم تعود فتقترب حتى خيَّل إليَّ أني أستطيع أن أقبض عليك وأجذبك إلى حضني فإذا أنت تتلاشى ولم أعد أراك. فخشيت أن يكون الشيطان قد تمثل لي بك فرحت أقرأ قل أعوذ برب الناس وكنت أرتدي ثوباً أزرق. قلت:

ـــ وأنا أيضاً يا أمي قرأت سورة قل أعوذ برب الناس، لأنني خشيت أن يكون الشيطان يعبث بي، قالت أمي:

ـــ سبحانك يا إلهي ما أعظم قدرتك، لقد أشفق الله علينا يا ابني فيسَّر لنا هذا اللقاء أنت في الحجاز وأنا في داغستان ثم قرأنا السورة نفسها سبحان مدبر الأكوان ما أرحمه بعباده!...

أخيراً مضت الأيام الثلاثة، وأخذنا أمي إلى الطبيب فرفع الضمادات عن عينيها، ووضع في كل عين نقطتين من «قطرة» كان يحملها في يده، وكان يقول لأمي أغمضي عينيك فترة ثم افتحيهما.

ولما فتحت أمي عينيها، صرخت إني أبصر يا أولادي، أقسم لكم أنني أبصر، ونظرت حولها فوقع بصرها عليَّ شهقت وقالت:

ـــ لكم كبرت يا ابني يا صالح تعال لأقبلك الآن، ورحنا نبكي حتى الطبيب دمعت عيناه. التفتُّ إلى سعيد وقلت له:

ـــ أما كان يجدر بنا أن نحمل هدية إلى هذا الطبيب الحاذق الذي أعاد إلى أمنا بصرها؟ قال سعيد:

ـــ لقد أتيت معي بالعباءة التي أهديتها إلي فهل تصلح؟ قلت:

ـــ حيّاك الله أسرع إلى الخان وآتني بها حالاً وسأعوضك خيراً منها. ثم أعطيت الطبيب أجرته وأكرمت مساعده. كان سعيد قد وصل فأخذت العباءة منه وقدمتها إلى الطبيب فتقبلها مني شاكراً ثم فردها ووضعها على كتفيه وأعجب بها كثيراً، ثم قال لي من أي بلاد هذه العباءة؟

• قلت:

ـــ إنها من بلاد بعيدة جداً، من مكة المكرمة. قال:

ـــ هي إذن من بلاد مقدسة. قلت:

ـــ نعم إنها من بلادنا المقدسة. قال بدماثة ولطف:

ـــ سأكون حريصاً عليها جداً.

نهض جدي، وقال:

ـــ سنتوقف اليوم هنا وغداً إن شاء الله سنستأنف حديثنا. قلنا كلنا بصوت واحد:

ـــ هذه أحلى السهرات يا جدي.

* * *

٢١

• قالت أمي :

ــ ابتدأ جدي حديثه قائلاً :

ــ كانت العودة أسهل من المجيء بكثير ، لأن الحوذي عاد بنا من طريق سهلة ولو أنها أطول من تلك بقليل .

كانت أمي تتكلم ، وتتكلم فرحة سعيدة ، تقول لنا :

ــ انظروا ما أحلى زرقة السماء ، ما أبدع هذه الجبال الشامخة ، انظر يا صالح هذا جبل يميل لونه إلى الحمرة ، وذاك إلى زرقة ، وهذا الذي يميل لونه إلى الرمادي الداكن ، وهذا الوادي الأخضر ما أجمله ، وتلك العصافير التي تتطاير مزقزقة ، وهذه الفراشات الملونة التي تتراقص أمامنا ، لم أكن أرى هذا الجمال ، لم أكن أقدره حتى فقدته ، فلما منَّ الله عليَّ ، وأعاد إليَّ بصري أصبحت أعرف كيف أستمتع به ، لكم أنت كريم يا إلهي . وهكذا من

حديث إلى حديث حتى أوقفنا الحوذي أمام أحد الخانات لتستريح الخيول، ونأكل ما يتيسر لنا. ثم تابعنا مسيرتنا.

وصلنا بيتنا قبل الغروب بقليل، وجدنا أختي خديجة وصاحباتها يقفن أمام الباب ينتظرن مجيئنا وما كادت خديجة ترى أمها تسير وحدها دون حاجة لمن يقودها حتى هرعت إليها واحتضنتها وراحت تقبلها ودموعها تجري، ثم دخلت البيت وراحت ترقص وتغني وكأنها قد جُنّت من الفرح.

تلك أيام لا تنسى لأنها كانت بحق أسعد أيام حياتي.

بعد العشاء الفاخر الذي أعدته لنا أختي خديجة، قلت لأخي سعيد:

ـــ أود غداً أن أصلي صلاة الصبح في الجامع. قال:

ـــ سآتيك قبل الصلاة بقليل لنذهب معاً.

نمت ليلتئذٍ ملء جفوني، أول مرة أنام في داغستان نوماً هنيئاً.

بعد بزوغ الفجر بقليل جاء سعيد. قلت له:

ـــ أتعرف ماذا أريد أن أفعل بعد الصلاة؟ قال:

ـــ سبحان الذي يعرف ما تكنُّ النفوس. قلت:

ـــ أريد أن أفي نذري. قال:

ـــ وما هو نذرك يا ترى؟ قلت:

ـــ لقد نذرت فيما بيني وبين نفسي أن أذبح عشرة أكباش أوزعها على فقراء شكي إذا منَّ الله علينا وشفيت أمي من عماها. بعد الصلاة مباشرة

سنذهب إلى السوق لنشتري الأكباش قبل أن يسرح بها الرعيان، ثم نأخذها إلى إمام الجامع ونكل إليه أمر توزيعها، لأنه أعرف الناس بأهل «شكي». قال سعيد:

ـــ حيَّاك الله يا أخي لكم أنت كريم ومعطاء.

قال لي الإمام عندما قدمت إليه الأكباش:

ـــ تقبَّل الله نذرك يا ابني، وعوَّض الله عليك، ما أحوج فقراء هذا البلد بعد هذه الحرب الطاحنة التي مررنا بها إلى مثل هذه الهبة السخية.

كان من عادة الداغستانيين أن ينظموا أغنيات بمناسبة الأحداث الهامة أو الغريبة أو النادرة التي تمر ببلادهم يغنيها الشباب والصبايا في سهراتهم واجتماعاتهم وقلّما يُعرف ناظمو هذه الأغنيات التي كانت بمثابة تاريخ يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل. وقد ظهرت بمناسبة شفاء أمي من العمى أغنية تصف الابن الذي عاد إلى أمه بعد غياب طويل فوجدها عمياء، وكما شفى يوسف عيني أبيه من العمى شفى الابن الذي غاب طويلاً عيني أمه من العمى، هيا نرقص لهما، ونغني ونغني... كان الزوار لا ينقطعون عن بيتنا طول النهار وشطراً من الليل ليهنئوا أمي بالشفاء وكثيراً ما كانوا يغنون ويرقصون لها تعبيراً عن فرحهم.

بعد مضي أسبوعين قلت لأمي وأخويَّ:

ـــ لقد آن لنا أن نتهيأ للسفر من الآن.

بدأ سعيد يدبر أموره، استطاع أخيراً أن يجد بين أصحابه وجيرانه من قبلوا أن يسكنوا البيتين أثناء غياب أمي وأخويَّ، ومن يعتني بالحصان أيضاً

مهما طال أمد الغياب. هيأنا أمتعتنا ثم أخذنا طريقنا نحو تركيا. لن أطيل عليكم يا أولادي أصبحتم تعرفون كيف يجري السفر في تلك الأصقاع. مكثنا في تركيا خمسة أيام زرنا أثناءها القسطنطينية، لقد استولى الذهول والدهشة على أمي وأخويَّ عندما شاهدوا تلك المدينة العظيمة، فما كان ليطولها خيالهم مهما أوغل في التخيّـل، هم الذين لم يسبق لهم أن خرجوا من «شكي» إلّا لبعض القرى، أو المدن القريبة منها، كان منظر البوسفور البديع النادر، والجوامع الرائعة، والقصور العظيمة، وأناقة الناس الذين يسيرون في الطرقات تثير إعجابهم وفضولهم فيسألونني عن كل شيء.

مضت الأيام الخمسة في القسطنطينية سريعة كما تمر الأيام السعيدة، ثم ركبنا باخرة تمخر بنا عباب البحر إلى مدينة بيروت، وما كان أروعها رحلة بحرية، كان القمر بدراً فكنا نمضي شطراً من الليل على ظهر الباخرة نستمتع برؤية البحر يتلألأ تحت أشعة القمر. كانت خديجة تقول:

ــ أحسبني أحياناً في حلم فأقرص يدي لأتأكد أنني لست نائمة أحلم، وكان يحلو لسعيد أن يدور في الباخرة فلم يدع فيها مكاناً لم يره. وكنت أجلس إلى جانب أمي نتحدث عن أيامنا الخوالي قبل أن نهاجر من داغستان، وعن أشواقنا أثناء هذه السنين الطويلة.

إن أكثر ما يسعدني يا أولادي هو أن يتيسر لي أن أسعد الآخرين، فكيف إذا كان هؤلاء الآخرون من أحب وأقرب الناس إليَّ؟...

وصلنا بيروت ومكثنا فيها يوماً وليلة. بعد القسطنطينية لم يعد يعجب أمي وأخواي أي بلد.

ثم ركبنا «الديليجنس» وهو عربة كبيرة فيها مقاعد كثيرة، تجرها عدة خيول، بعد اثنتي عشرة ساعة وصلنا إلى دمشق، ثم استأجرت عربة لتوصلنا إلى بيتنا في حي الصالحية.

كنت في أشد الشوق إلى ابنيّ وزوجتي وبيتي وأهلي جميعاً. هذه الفترة من حياتي كانت محفوفة بالمفاجآت حتى أصبحت مغرماً بها، لم أطرق الباب بل أخرجت مفتاحي من جيبي وفتحت الباب وأدخلت ضيوفي، ووقفت في باحة الدار وصرخت بأعلى صوتي:

ـــ يا زينب، يا نجيب تعالا لتتعرفا إلى أمي وأخويَّ. وكان اللقاء الحار، القبلات، والضمات، ودموع الفرح. أحبت أمي زوجتي وابني وكانت تقول:

ـــ أحمد الله بكرة وأصيلاً لأنه منَّ علي بالشفاء من العمى لأستمتع برؤية أحبتي.

ثم رحت أدور معهم في أرجاء البيت كلها، لكم أعجبوا ببيتي. قالت أمي:

ـــ ما كنت أتصور أبداً أن نهراً كبيراً يمر في بيتك يا بني، وكم أحبت الحديقة والناعورة. في صبيحة اليوم الثاني لوصولنا أرسلت ابني نجيب إلى بيتنا في باب البريد ليبلغهم بمجيء أمي وأخويَّ، فجاؤوا جميعهم مع بناتهم وأنسبائهم ليسلموا علينا.

ثم راحت تقام الولائم من أجل ضيوفنا فسرت أمي كثيراً بهذه الحفاوة التي استقبلت بها. ثم أصررت على أختي الكبيرة أم محمد لتبقى عندنا أثناء وجود أمي لتتسليا معاً، لأن زوجتي وابني لا يتكلمان لغتنا الداغستانية إلّا

بصعوبة بالغة. وحين أذهب إلى عملي لا يوجد من يترجم لهما، كانت أم محمد تقوم بهذه المهمة، مكثت أمي وأخواي في دمشق شهراً كاملاً قبل موسم الحج. كنت آخذهم إلى الجامع الأموي وإلى أسواق دمشق ومزاراتها، وإلى بساتينها ومقاصفها وضواحيها الجميلة. فلما قرب موسم الحج أخذنا نتهيأ للسفر، استأذنت الباشا ليسمح لي أن آخذ أمي معي في التختروان فأذن لي مما سرني كثيراً، ثم استأجرت محارة لأخي وأختي.

ظللتُ مدة الحج كلها ملازماً لأمي، أي أربعة شهور كاملة لم أفترق عنها إلّا ساعات قليلة حين كنت أذهب لأقوم بوظيفتي، وكنت أخدمها بنفسي لا سيما عندما كانت تقوم بشعائر الحج.

حان موعد عودتنا فأخذت أمي وأخويَّ إلى الأسواق واشتريت لهم ما شاؤوا من الهدايا ليحملوها معهم إلى داغستان.

كنت أشعر أنني راض عن نفسي الرضا كله، ولا أعتقد يا أولادي أن هناك سعادة تعادل سعادة الإنسان عندما يكون راضياً عن نفسه.

أثناء عودتنا إلى دمشق حين كنت أنا وأمي في التختروان قلت لها ذات مرة:

ــ كم سيصعب علي فراقك يا أمي، لقد اعتدت أن أراك وأتحدث إليك كل يوم، ما رأيك في أن تظلي عندي في دمشق، وتسكني أنت وأخواي في البيت البرّاني الذي أعجبك كثيراً؟ فنظرت إليَّ نظرة استنكار وعتب وقالت:

ــ أتريدني يا صالح أن أهجر بلدي؟ أن أتخلى عن أرضي، وبيت أبي،

وبيت زوجي للأعداء؟ أن أحقق لهم مآربهم؟... أنا التي ألوم كل من هجر بلاده أهجر بلدي؟ لا، وألف لا يا صالح.. كنت أنتظر منك أن تعود أنت إلى بلادك لا أن تدعوني أنا إلى هجرتها.. قلت لها:

ـــ معك الحق كله يا أمي، يا أروع أم، لا أخفي عليك أنني فكرت بالعودة إلى بلدي عندما كانت الثورة في داغستان في أوجها، وكان الشيخ شامل يحقق الانتصار تلو الانتصار، آليت على نفسي إذا نجحت الثورة أن أتخلى عن وظيفتي وبيتي وأعود إلى داغستان ولو أنني سأعيش فيها فترة طويلة على الكفاف ريثما أبني حياتي من جديد، أما وقد أخفقت الثورة، وأنا لا أملك في بلدي شبراً من أرض، أجدني ملزماً لأن أحافظ عليه، كما لا أجيد مهنة أستطيع أن أعيش من ورائها، ولا سبيل إلى وظيفة ما، لأن الوظائف الكبيرة سيشغلها المحتلون، والصغيرة التي لا شأن لها سيوزعونها على أنصارهم كما يشاؤون. من أجل هذا كله عدلت عن المجيء إلى بلدي. قالت أمي:

ـــ أعطيك بعض الحق، وليس كله، ما أدراك يا بني أن تقوم ثورة أخرى تعم القفقاس كلها، وتحقق لنا النصر.

• قلت:

ـــ **أنّى يكون لنا زعيم يوحّد القفقاس كلها كما وحّد الشيخ شامل الداغستان؟**

• قالت:

ـــ سيأتي ذلك الزعيم كما أتى الشيخ شامل. قلت:

ـــ هذا أمر يصعب تحقيقه. قالت:

ـــ ولمَ يصعب تحقيقه؟ من أين أتى الشيخ شامل؟.. أتى من رحم امرأة داغستانية، وما زالت النساء، والحمد لله، في القفقاس كلها يحملن ويلدن الأولاد، وليس ببعيد أبداً أن يظهر من بين هؤلاء الأولاد واحد يصبح فيما بعد زعيماً يحقق لنا ما عجز عن تحقيقه الشيخ شامل.

• قلت:

ـــ لكم أنت متفائلة يا أماه. قالت:

ـــ أليس التفاؤل خيراً من اليأس؟ التفاؤل يا بني يؤدي غالباً إلى النصر والنجاح، أما اليأس فليس وراءه إلّا الهزيمة والإخفاق...

توقفنا عن حديثنا الممتع هذا عندما وصلنا إلى محطة يقف فيها الحجيج كله، وأثناء الاستراحة كان يأتي إلينا سعيد وخديجة لنتناول طعامنا معاً. ثم نشرب القهوة ونتحدث حتى يحين وقت المسير.

ولما وصلنا ـــ العسالي ـــ من ضواحي دمشق وجدنا أخي أحمد وابني أخويَّ محمد ومصطفى قد جاؤوا لاستقبالنا ومعهم عربة لتقلنا إلى بيتنا في حيِّ الصالحية. هناك وجدنا نساء الأسرة جميعهن في انتظارنا فاستقبلننا بالزغاريد كما اعتاد الدمشقيون أن يستقبلوا حجاجهم، مما سر أمي وأفرحها كثيراً.

بعد أسبوع من عودتنا، قالت لي أمي ونحن نتناول طعام الفطور في الحديقة أمام النهر والناعورة:

ـــ لقد آن لنا يا صالح أن نعود إلى بلدنا. قلت لها عاتباً:

ـــ ولـمَ تستعجلين العودة يا أمي؟؟ هل مللت منا؟ قالت:

ـــ سامحك الله يا صالح وهل تمل الأم من ابنها؟ لقد كانت هذه الشهور الستة التي أمضيتها معك من أسعد أيام حياتي ... وسأظلُّ عمري أدعو لك بعد كل صلاة أصليها أن يوسع الله عليك بالرزق، ويمنَّ عليك وعلى أسرتك بالسعادة والهناءة. ألا يكفي يا بني أنني بفضلك شفيت من العمى؟ لكن لا بد لنا أن نعود إلى بلدنا لقد تأخرنا كثيراً عن هؤلاء الأصدقاء والجيران الذين يسكنون بيوتنا، ويرعون مصالحنا أثناء غيابنا الطويل، كما تأخر أخوك سعيد عن عمله في أرضه، وقد عزمت إن شاء الله على السفر في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم.

كنت لاحظت أن أمي قد اكتسبت كثيراً من خصال أبي، فهي لن تتراجع أبداً عن أمر عزمت عليه، فاضطررت أن أذعن لمشيئتها مرغماً. قلت لها:

ـــ كما تشائين يا أمي، سأبعث من يحجز لكم مكاناً في الباخرة في اليوم الذي اخترته. قالت:

ـــ لي عندك رجاء يا صالح. قلت:

ـــ أنت تأمرين يا أمي. قالت:

ـــ هل لي أن أطمع في أن تزورنا في داغستان كلما تيسر لك ذلك قلت:

ـــ ولمَ لا يا أمي! هذا ما كنت أفكر فيه أنا أيضاً، ولكن على شرط أن تعودوا معي إلى دمشق وتمكثوا فيها قدر ما يحلو لكم. قالت:

ـــ لك ما تريد يا بني.

بعد أسبوع ذهبت مع أمي وأخويَّ إلى بيروت في ـــ الديليجنس ـــ لأودعهم. بتنا ليلة في بيروت، وفي الصباح الباكر كان الرحيل.

وقفت على الشاطئ أرقب الباخرة وهي تبتعد بهم وتبتعد. وظللت مسمراً في مكاني لا أستطيع حراكاً حتى توارت الباخرة عن ناظريّ، فشعرت لحظتئذٍ أن شيئاً عزيزاً عليَّ ينسلخ عن روحي، فأدركت أنه الوداع الأخير.

لقد صدق حدسي!!.. بعد سنة، حمل إلي أحد المهاجرين القفقاسيين خبر نعي أمي!..

حزنت عليها حزناً عميقاً، وكان عزائي الوحيد هو أنها رحلت عن هذه الدنيا وهي راضية عني الرضا... كله.

* * *

نص الفرمان الذي أمر السلطان محمود خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين أن يحرر وهو ممهور بإمضائه

صدر أمرنا العالي السلطاني، ووقع حكمنا السامي الخاقاني إلى أعظم الأمراء الكرام وأفخم الكبراء الفخام صاحب العز والاحتشام حارس ثغور الإسلام وفارس ميدان الهيجاء والاعتصام المختص بمزيد عناية الملك العلام عبد الله خان دامت معاليه غب وصول التوقيع الرفيع السلطاني وإثر ورود الطفراء الغراء الخاقاني. فليعلم أنه لا يخفى عليك أن الكفرة الروسية لكونها خصماً طبيعياً لشريعتنا العلياء الحنيفية وملّتنا السمحاء الإسلامية كلما اختلست الفرصة قامت على أن يخرج من القوة إلى الفعل ما في ضميره الخبيث من سوء القصد والإهانة على عامة الملّة الإسلامية ولكون هذا عادة مستمرة لها للمحاربة والمقاتلة كرة بعد أخرى بأهل طاغستان وأنهم وإن بذلوا جهدهم في مقابلتها على ما تقتضيه الغيرة الدينية والحمية الإسلامية لم يخلصوا من شرها وضعفوا متى ضاعفت استطاعتها لاستيلائها من قبل بالإغفال وأنواع المكائد والاحتيال بممالك كورجستان التي كانت آمنة من تصاريف الصرفان وتقاليب الجديدان في ظلنا الظليل وحمانا الجليل واستولت عليهم بالثبور من ذلك الثغور وأن أهل طاغستان وإن استعانوا من دولتنا العلية الزاهرة واستنصروا عليها لكن سلطنتنا القاهرة كانت مسالمة معها في تلك الأوقات فلم يمكن لنا الإمدادات والإعانات احترازاً عن ظهور نقض العهد أولاً من هذا القبل كما استقر هذا الدأب الأعظم من الدول فاتفقوا لتغلبها وفقدان المعاونة لهم عليها على أن يداروها كما يراه العقل ويصالحوا كرهاً على ما يجوّزه النقل في مثل هذا الأمر إذ وجدوا في مداراتها أمناً في الجملة حيث أنها تغلبت ولذلك انعقدت بينهم المسالمة مشروطة ببعض الشرائط وتقررت فأفضى الأمر على هذا من ذلك الوقت إلى الآن ولكن قاطبة أهالي طاغستان لعلمهم بأن الخلافة العظمى قد تخصصت بتخصيص الله تعالى للدولة العلية العثمانية

التي انكسرت من صولتها ظهور الأكاسرة ونكست من سطوتها ألوية القياصرة ولتيقنهم بأمر الله عز وجل وانقيادهم وتصلبهم في دينهم واعتقادهم يعملون الآن بقوله تعالى: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾. ويتخذوننا أمير المؤمنين وإمام المسلمين صدقاً ويعتقدون في أننا خليفة الله رب العالمين حقاً حتى يذكرون اسمنا السامي كل يوم الجمعة على المنابر ويدعون لدولتنا في الأول والآخر ولهذا فإنهم قد سمعوا أن الكفرة الروسية قد ابتدأ بنقض العهود وأعلن الحرب مع بذل المجهود وجزموا أن المكافحة إذا تحققت بيننا انفسخت مصالحتهم المشروطة فاستدعوا أن يدخلوا جميعهم من العساكر والأمراء في حيطة اتباعنا أفواجاً وزمراً وأن يعادوا من نعاديه ويوالوا من نواليه ويحاربوا تلك الشرذمة المقهورة في ديارهم حين يساورهم عساكرنا المنصورة لقهرهم ودمارهم مساورة الأسد من الاجم على الكبش الاجم وأن لا نتركهم إذا سالمنا مع الكفرة المسعورة فتحدهم في حالي القتال وسيد الأحكام كاتحادنا في الإيمان والإسلام فبلغ تمنيهم هذا ووصل بوساطة افتخار الأماجد والأكارم محمد سعيد بك بن قاسم خان دام مجده وقدوة العلماء المحققين جلبي الحاج محمد المفتي السابق في شكى وشروان بند علمه إلى سدتنا العالية لا زالت ملاذاً للملل فصار مرضياً عندنا وموفقاً لرضائنا لكونه مطابقاً لشأن الإسلام فعزمنا على حماية طاغستان ورفاه أهلها وصيانة أصقاعها من حزونها وسهلها فبعد اليوم لا تزال عواطفنا الشاملة معطوفة إليهم وهممنا الكاملة مصروفة عليهم ماداموا مستقرين في دائرة الإطاعة وقاموا على إنفاذ أوامرنا المطاعة ولما كانت دولتنا العلية لاعتصامها بحبل الله المتين الذي هو عبارة عن شريعة نبيه سيد المرسلين تعامل بكفار الروسية بالنصفة وتتحرز من نقيصة نقض العهد أولاً تجبر فسامحنا وتكبر فصافحنا فظن أن ذلك من عجزنا عن الكفاح فبارز مبارزة الكلب على الضرغام بالنباح كالباحث عن حتفه بظلفه وألقى الفتنة بين الطائفة الرومية ليخرجهم عن الرعية وأصر على ما ادعى وطلب أن نساعده فيما استدعى وأطال يد التعدي حتى تجاوز في اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال المكرم بغتة نهر برون بالعتو والطغيان ودخل مملكة بغدان فوجب علينا أن نجرعهم من كأس اليأس والبؤس ونسكب عليهم حميم العذاب من فوق الرؤوس كالمهل يغلي في البطون جزاء بما كانوا يستكبرون فطفقنا نقابلهم بهمةٍ تخضع لها شم الأطواد وعزمةٍ تلين لها الصم الصلاد متوكلين على خير الناصرين ومتوسلين بالإمدادات الروحانية من قبل سيد المرسلين وأرسلنا إلى المواقع المقتضية مثل طونه وجانب الشرق وسواحل البحرين ما لا بد من الأجناد والجياد فوجاً بعد فوج وهيئنا العدة والعتاد موجاً إثر موج لما كنا مقررين بالجهاد مع أهل الكفر والفساد والإيصال إلى جهنم وبئس المهاد ولما لا يقاس هذا الحرب على الحروب السابقة إذ ليس هذا من أجل الملك والمال بل من أجل الدين وإقامة حدود الله الملك المتعال فالحمد لله قد اتفق عامة الموحدين وأطبق كافة المسلمين وتهيأ كلهم من اثني عشرة

سنة إلى سبعين في سبيل الله المعين لنصرة الدين المبين والمقاتلة مع المشركين وقد قال الله تعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ وأكدوا العهد والميثاق بأن يسوقوهم إلى دار البوار وسوء المساق بأسواط صواعق للمشرفيات يوم التلاق إذا التفت الساق بالساق بحيث لا يبالون بما يفقدون من الأموال والنفوس في المهاجمة على شمله المنحوس كالليل الهموس واعتقاد عساكره حين رأوها اعتماداً على تبشير قوله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ فإذا علمت هذا أيها الخان المشار إليه فبادر بالإعلان لعامة أهل طاغستان أن ظلال حمايتنا وأعطافنا مبسوطة على هامتهم ونوال برنا وألطافنا شاملة بعامتهم وأن أعداء الدين قد عزموا على قلع شجرة الإسلام من الأصل وأجمعوا لكسر بيضة التوحيد بالنطح والنصل كما فصلناه فصلاً بعد فصل وأن جيوش المسلمين في ممالكنا المحروسة الذين هم أكثر من أن يحصى مثل الرمال على الحصى تعاضدوا في قمع من عصى كما قال سيد البشر عليه صلاة الله في كل عشي وسحر المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وتناجدوا بالصريمة الصارمة على أهل الشقاوة والبغضاء ألوفاً تهتدي بألوف يغتنمون الجنة تحت ظلال السيوف والمأمول من الألطاف الصمدانية أن ينصرنا ويدمر الأعداء إذ ليس هذا الاتفاق العمومي والاتحاد الصميمي إلّا لأجل الدين كما قال الله في كتابه المبين : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ فشمر عن ساق العزم بجهد جهيد وشدد حزام الحزم في صراط الله العزيز الحميد وانهض مع كل من في حوزة حكومتك من الكماة الأبطال وحرض المؤمنين على القتال واتفق مع سائر خانان الجليل العنوان في سد المعابر والمصادر بتعبية الخميس فيما بين تيمور فيو وموزوك وتفليس بحيث لا يستطيع أحد من الكفار الإياب والذهاب ولا نقل المهمات من لوازم الحراب وتناجد على ديارهم بأن تسوق أحداجاً تأويباً وأدلاجاً مع عصائب من فرسان الكتائب من أهل طاغستان كما هو أخص مطالبنا السلطانية وأقدم مآربنا الخاقانية فصدر هذا المثال العالي الواجب امتثاله على الأسافل والأعالي الذي هو منطوق خطنا الشريف النافذ حكمه بين الخافقين وأرسل إليك مودوعاً بواسطة وزيرنا الدستور المكرم المعظم والمشير المفخم المحترم نظام العالم الصدر السابق والوالي حالاً بارزنة الروم والسر عسكر بالحوالة الشرقية السيد محمد سعيد غالب باشا أدام الله تعالى جلاله فإذا كان الأمر كذلك فلا شك في أنه من نصر الدين المبين ودخل في إجماع الموحدين وبذل جهده في مرضاة مولاه فقد وقع أجره على الله وعمر دينه ودنياه ولا ينس لدينا ذمامهم أبداً ولا يتركون مدى الدهر سرمداً فضلاً عما ينالونه من حسن المكافآت في دار المجازات فإن إهانة الكفرة المرسومة تعود معاذ الله تعالى على جميع بلاد الإسلام بل ترجع إلى كل من في الأرض من أمة محمد عليه الصلاة والسلام وألق ما ألقي إليك من شدة رعونة الكفار في مسامع قطّان تلك الأقطار ومفهوم قوله تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على

القاعدين أجراً عظيماً ﴾ وقول رسوله المزكى عليه من الصلوات ما هو الأزكى من اغبرت قدماه في سبيل الله وجبت له الجنة وبادر على تنفيذ إرادتنا وباشر على إبراز آثار الصداقة والحماسة وإثبات مدعي الديانة واعمل بهذا الأمر الشريف والحكم المنيف وبلغ إلى من يلزمه التبليغ ما احتواه من التنبيهات والوصايا وسوغ أكمل التسويغ في البرايا وتباعد عن تجويز وضع الخلّاق واعتمد بالعلامة الشريفة المشاق واجتهد في إنفاذه كل الاجتهاد في جميع الأحيان وعليك المخايرة بالوزير المشار إليه في اقتضاء الأحوال والأوان إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وتبتل إليه تبتيلاً حرر في أواسط شهر ذي القعدة الشريفة لسنة ثلاث وأربعين ومئتين وألف من هجرة من كما يرى من قدام كان يرى من خلف.

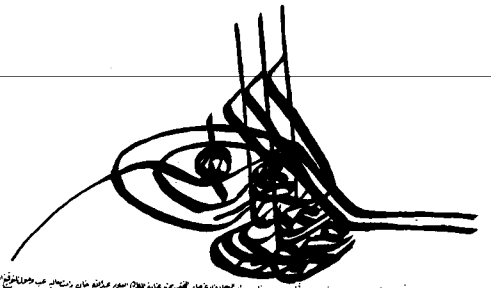

صـدر للمؤلفـة

ـ قصص شامية ـ قصص ـ دار اليقظة ١٩٥٤

ـ وداعاً يا دمشق ـ قصص ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣

ـ المنوليا في دمشق ـ محاضرات وأحاديث ـ ابن زيدون ١٩٦٤

ـ ويضحك الشيطان ـ قصص ـ مكتبة أطلس ١٩٧٠

ـ نظرة في أدبنا الشعبي ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٤

ـ عصيُّ الدمع ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٦

ـ دمشق يا بسمة الحزن ـ رواية ـ طبعة ثانية ـ دار طلاس ١٩٩٠

ـ نفحات دمشقية ـ محاضرات ـ دار الدروبي ـ ١٩٩٠

يصـدر للمؤلفـة

ـ وداع الأحبة

حكاية جدي : رواية / ألفت الادلبي . ـــ ط٢ . ـــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩١ . ـــ ٢٢١ص ؛ ٢٠ سم .

١ ـــ ٨١٣ر٠٣ادل ح٢ ـــ ٨١٣ر٠٠٩٥٦١ادل ح ٣ ـــ
العنوان ٤ ـــ الادلبي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـــ ١٩٩١/٣/٢٠٥

رقم الإصدار ـــ ٥٢٤

حكاية جدّي ...

رواية جديدة للرائدة القصصيّة الأديبة إلفة الإدلبي

تدور حول دمشق .. النّاس ، وقاسيون ، والأسواق التجاريّة والغوطة والبيوت الأليفة الدافئة ، والياسمين الزاكي ..

دمشق التي حوت بمحبتها ، ومودّة أهلها ، أسرة الشيخ محمّد جلبي ، القادمة من داغستان وتطوّر هذه الأسرة وتعايشها مع المجتمع الشّامي ..

" حكاية جدّي " رواية من الأدب الأسري الناهض لها خصوصيّتها وفرادتها الإبداعيّة ، وأسلوبها الرفيع.

ولئن كانت الأديبة إلفة الإدلبي رائدة من رائدات القصّة القصيرة في بلادنا ، فهي في هذه الرواية رائدة أولى أيضًا في مجال كتابة رواية الفتيان .. التي ندر جنسها الأدبي في المشهد الإبداعي العربي منذ أوائل هذا القرن وحتّى يومنا هذا .